القضية الفلسطينية والغرب المسيحي

أنطون المقدسي

من لقاء بيروت الى لقاء باريس

كان لقاء بيروت (الندوة العالمية للمسيحيين من أجل فلسطين ، ٧ - ١٠ أيار ١٩٧٠) خلاصة لتحول بطيء في الرأي العام العالمي حيال القضية الفلسطينية وتعبيراً عاماً موضوعياً عن هذا التحول . كما انه كان نقطة انطلاق نضالية جديدة ، تعهد فيها المسيحيون المجتمعون من كل اقطار العالم وأممه وشعوبه وقاراته ، بالتعريف بالحق العربي تعريفاً نزيهاً ، وبالسعي لايجاد حل عادل لهذه القضية الشائكة المستعصية . فلقد قام الثلاثمائة مؤتمراً - وكلهم من كبار العلماء واللاهوتيين - بتحليل القضية تحليلاً بيّن أبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية ، ليخلصوا إلى نتيجتين اساسيتين : اولاهما ، انها قضية استثمارها الاستعمار حفاظاً على مصالحه ، فشرّد الشعب الفلسطيني من وطنه ، واقام في قلب الوطن

العربي دولة مفتعلة هدفها الأول والأخير وأد النهضة العربية ؛ الثانية هي ان الحل العادل والسليم يقوم على ازالة الكيان الصهيوني ، وعلى انشاء دولة فلسطينية علمانية وديمقراطية تقرر مصير مواطنيها المتساوين في الحقوق والواجبات [١] .

ولقد انبثقت عن لقاء بيروت :

أولاً — امانة سر عامة ذات مركزين ، الواحد في بيروت والآخر في باريس .

ثانياً — لجان عامة (مالية — اعلام — بحوث نظرية — لجان اتصال مع مختلف الحكومات والمؤسسات والجماعات المعنية بالقضية الفلسطينية — لجنة اتصال مع المقاومة ، الخ) .

ثالثاً — هيئات وطنية هي ، مبدئياً ، بعدد البلدان التي اشتركت في لقاء بيروت أو مثلت فيه ، توحد بينها ، على الصعيد العملي ، امانة السر ، وعلى الصعيد النظري ، مقررات بيروت . ولكن لكل منها حرية العمل ، فهي تكيف ممارستها تبعاً لموقعها ، ولموقع قوى بلدها السياسية من القضية الكبرى .

هذه المؤسسات الثلاث تؤلف (هيئة دائمة) تضع الخطط وتعمل على تنفيذها ، وهي التي اجتمعت في باريس (١١ — ١٢ شباط ١٩٧١) باشراف امانة السر لتستخلص نتائج عملها على ضوء المعطيات الراهنة للقضية الفلسطينية ، ولتحدد الخطوط الكبرى لبرنامج عملها في المستقبل ، ولتعد العدة للقاء عالمي

---

(١) راجع مقالنا المنشور في جريدة البعث (العدد ٢٢٠٣ ، تاريخ ٢١ — ٥ — ١٩٧٠) حيث اعطينا خلاصة وافية عن ندوة بيروت وعن مقرراتها .

جديد . ولقد ضم لقاء باريس ستين مندوباً يمثلون ثماني عشرة هيئة وطنية ، اشترك معهم في النقاش مندوبان عن المقاومة الفلسطينية وعدد من المراقبين والصحفيين ممن التزموا جانب الحق العربي .

والواقع ان القضية ، وان كانت ماتزال هي هي في ابعادها الاساسية - اي قضية شعب مُشرد فحمل السلاح ليستعيد حقه المغتصب - هذه القضية ، قد تبدلت معطياتها بنتيجة احداث اربعة هامة هي :

اولاً - وفاة الرئيس جمال عبد الناصر المفاجئة . فقد كان الراحل الكبير ، في الشؤون الداخلية ، حكماً وملاذاً ، وفي الشؤون الخارجية ، نداً لكبار ساسة العالم ، وصوتاً حاسماً في المحافل الدولية .

ثانياً - مجزرة ايلول الوحشية التي كانت اكبر محنة واجهتها حتى الآن الحركة الفدائية ، فقد طعنتها في الصميم ، مبرهنة على ان العدو الداخلي (الرجعية) ادهى من العدو الخارجي (الامبريالية) ، وان كان الاثنان واحداً .

ثالثاً - مشروع الحل السلمي ، او بالاحرى « المناورة » السلمية التي اضافت ، الى الحرب الدامية ، حرباً نفسية ، غايتها تحطيم القوى المعنوية التي تحرك الثورة .

رابعاً - الامدادات المالية والحربية التي قدمتها ، هدية مجانية ، الامبريالية الاميركية لدولة الصهاينة ؛ وهي امدادات لانعرف لها مثيلاً في تاريخ الحروب الاستعمارية ، قلبت - مرحلياً - ميزان القوى لصالح الرجعية والامبريالية في المعركة .

انها احداث بمنتهى الخطورة ، مازال نتائجها ترتكس على الثورة العربية وعلى طليعتها ، الحركة الفدائية ، لتزيد القضية تعقيداً من جهة ، ولتبرز من جهة اخرى أبعاد المعركة ، فتستدعي ، لدى اصدقاء العدالة والسلام الحقيقيين ، المزيد من اليقظة والفعالية .

ولقد بدا من المناقشات الاولى ان الهيئات الوطنية وعت هذه الاحداث فكان موقفها منها منسجماً لحد بعيد مع موقف المقاومة ذاتها .

حصيلة وتطلع

تركز لقاء باريس حول محاور ثلاثة :

١ – استخلاص حصيلة الاشهر العشر التي تفصل بين (ندوة بيروت العالمية) وبين (اجتماع الهيئة الدائمة) ، فقد طرح نضال الهيئات الوطنية على هذه الهيئات وعلى انصارها عدداً من الاسئلة كان على المجتمعين في باريس أن يتفهموها وان يحاولوا الاجابة عليها .

٢ – الاستماع الى وجهة نظر المقاومة ، كما ترى وضعها بعد الاحداث المريرة التي اشرنا اليها . فاعدت ، لهذا الغرض ، هيئة تحرير صحيفة (الشهادة المسيحية) ندوة صحفية تحدث فيها مندوب عن المقاومة ، واجاب عن الاسئلة التي طُرحت عليه ؛ كما ان المؤتمرين استمعوا الى خلاصة وافية عن الموضوع ذاته ، وضعها احد اعضاء امانة السر في بيروت ، ممن هم على صلة وثيقة ومستمرة بالمنظمات الفلسطينية .

٣ – تحديد هوية الندوة العالمية . فالمسيحي ، بوصفه مسيحياً ، يتساءل ويجب ان يتساءل عن دوره في معركة هي من شأن المواطن الملتزم لا من شأن المؤمن ، طالما انها معركة سياسية – اقتصادية .

بدأ لقاء باريس بعرض موجز اعدته الامانة العامة ، عما قامت به من نشاط خلال الاشهر العشرة المنصرمة . فقد ترجمت مقررات بيروت ونداءها الى اهم لغات العالم (الانكليزية ، الالمانية ، الروسية ، الاسبانية ، المنغارية ، الـخ) ونشرت هذه الوثائق في عدد من امهات الصحف الكبرى العالمية وفي عدد من الصحف المختصة ، ثم وزعتها على الهيئات السياسية والدينية بمختلف انواعها واتجاهاتها ، وعلى العديد من النقابات والاحزاب والمنظمات السياسية .

وبينت أمانة السر العامة أنها كانت ومازال على اتصال وثيق بالحركة الفدائية تشترك في اجتماعاتها العامة (القاهرة ، عمان ، ومن ثم الكويت) وتنسق العمل معها ، كما انها على اتصال مستمر بالحكومات العربية التقدمية وبالجامعة العربية ، تستأنس برأي هؤلاء كلهم حتى لاتقوم بمبادهة ذاتية تحرفها عن الخط الذي رسمته لنفسها .

وهي أخيراً تتعاون مع مراكز الدراسات والبحوث الفلسطينية التي التي بدأت في بيروت ، ثم تخطتها الى عواصم عربية واجنبية أخرى ، بحيث اصبح نتاجها تراثاً لايستهان به ، وهو جدير بأن يُعرف وان يُعرّف به .

ولقد كان بودها ان تنشر وثائق (ندوة بيروت) مترجمة الى اهم لغات العالم ، كما كان بودها ان تصدر مجلتين من مستوى عالمي ، الواحدة في بيروت والأخرى في باريس ، للتعريف بالقضية الفلسطينية وبالثورة العربية . ولكن وسائلها المالية لم تمكنها من ذلك . وهي تقوم الآن بمساعي حثيثة للتغلب على هذا العائق المادي .

* * *

وبدا من تقارير الهيئات الوطنية ان عملها ، وان كان قد أخذ في كل بلد شكلاً خاصاً ، فمجالاتها تقريباً واحد ، لأنها تقيدت بالخطة التي وُضعت في بيروت. كما بدا أن اكثرها نشاطاً هي هيئات ايطاليا وانكلترا وارلندا وفرنسا والجزائر ولبنان وهنغاريا وكوبا . وبينت الامانـــة العامة ان اسهام هيئات اميركا الشمالية والجنوبية لايقل عن اسهام غيرها , ولكنها لم تتمكن ، لأسباب مالية ، من دفع نفقات موفدين يمثلون هذه الهيئات .

ويتلخص نشاط الهيئات الوطنية بالامور التالية :

١ – الاتصال بالهيئات الرسمية ، الدينية منها والحكومية ، فقد قُدمت مقررات بيروت الى الفاتيكان والى بطريرك اثينـــا غوراس ، عميد بطاركة الارثوذكس . كما أن هيئة ارلنـــدا مثلاً قدمت هذه الوثائق رسمياً إلى مجلس الشيوخ والنواب في بلدها .

٢ – الاتصال بالأحزاب والمنظمات السياسية اليسارية لتنسيق العمـــل معها في مجال مناهضة الامبريالية ، والاتصال أيضاً بالنقابات والاتحادات العمالية التي أخذت ترى في نضال الفدائيين وجهاً أساسياً من وجوه نضال الكادحين ضد الاستغلال والتسلط والتمييز العنصري .

٣ – انشاء جمعيات للصداقة العربية ، والتعاون مع اللجان التي شكلتها المنظمات اليسارية في بعض البلدان (ايطالياً مثلاً) للدفاع عن الحق العربي .

٤ – الاتصال بالحركة الطلابية الثورية التي تجاوبت عفوياً مع كفاح الفلسطينيين والفيتناميين والكوبيين وبقية الثورات التحررية , وقد اكد لي احد المراقبين الحياديين ، ممن اجتمعت بهم في باريس ، أنه رأى في جامعتين من جامعات العاصمة الفرنسية ظاهرة تسترعي الانتباه ، وهي أن الطـــلاب وزعوا

الممرات على أقسام : الواحد منهـــا لفلسطين والآخر لفيتنام وغيره لكوريا الديمقراطية ورابـع لكوبا ، الخ . وفي كل قسم وضعوا لافتات وصوراً تعبر عن تضامن ثورتهم مع هذه الثورات .

٥ - جمع التبرعات للفلسطينيين الذين شردتهم محنة ايلول ، ومساندة التحركات الفدائية عند الحاجة وضمن حدود الأمكان .

٦ - تنظيم ندوات ولقاءات شعبية والقاء محاضرات ، غايتها تكامـــلا ، لا الاقتصار على شرح وثائق (ندوة بيروت) وحسب ، بل إضافة عناصر جديدة اليها . ففي نظرهم ان الثورة الفلسطينية على ماتعاني من نكبات ، مازال تترسخ وتتكشف عن وجهها الحقيقي ، وجه العدالة المطعونة . فالفلسطينيون لم يحملوا السلاح إلا لأن الاستعمار لايفهم إلا هذه اللغة .

وقد مثل العرب في اللقاء مندوبون عن المتحدة وسورية والجزائر والمغرب وممثل عن الجامعة العربية . فوزع أحد مندوبي المتحدة - من الاخصائيين في الحقوق الدولية - دراسة حقوقية عن مجمل القضية الفلسطينية ، وملخص هذه الدراسة للمؤتمرين . كما ان مندوب سورية ارتجل كلمـــة بعنوان (البعد العربي للقضية الفلسطينية)[١]، بين فيها ان الاستعمار يستهدف ، عبر الفدائيين ، الثورة العربية التي ، اذا ماحققت اهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية ، ازاحته عن مواقعه الاستراتيجية الاساسية وحرمته من أهم موارده الاقتصادية . إن هذا البعد العربي هو الذي يحاربه أعداؤنا ، ولم يعره اصدقاؤنا ما يستحق من اهمية . فالتعريب هو استعادة العرب لهوية يحاول طمسها المستعمر الدخيـل .

وقد بيّنت الهيئات العربية المسيحية ان نضالها ، قد انصهر مع نضال حكوماتها ، لأن هذه ملتزمة بالقضية التزام الفلسطينيين انفسهم بها .

---

(١) راجع النص الكامل لهذه الكلمة في الطبعة الفرنسية لجريدة « البعث » العدد ١٢ تاريخ ١ نيسان ١٩٧١ .

تساؤلات :

قلت أن نشاط الهيئة الوطنية وضعها تجاه عدد من المشكلات ألقيت عليها او ألقتها على ذاتها ، وكان على الهيئة الدائمة ان تجيب عليها ، أو ان تطرحها طرحاً صحيحاً بحيث تعد الطريق لتذليلها : اولاها الباب الذي نفذت منه الصهيونية الى الرأي العام المسيحي فضللته ، اي دعواهم بأن العهد القديم من الكتاب المقدس قد وعدهم بارض فلسطين ؛ ومن ثم ، ارتباط الثورة الفلسطينية بثورة العالم الثالث ، او بالأحرى بثورة العالم كله على الامبريالية ؛ وبعد ذلك علاقة المسيحيين باليهود الذين يناهضون الصهيونية ؛ واخيراً علاقة (الندوة العالمية) ، او بالأحرى علاقة المسيحيين - باهم كذلك - بالكفاح المسلح الفلسطيني .

والواقع ان (المقررات اللاهوتية) لـ (ندوة بيروت) كانت قد ذللت القسم الأعظم من المسألة الأولى . فالقضية الفلسطينية قضية سياسية ، محركها الاسامي اقتصادي - استعماري ، ولكنها غلفت بغطاء ديني مزيف للتأثير على على الرأي العام المسيحي .

فيجب أن تضاعف جهود اللاهوتيين في هذا المجال ، وذلك بشرح مفصل ومبسط لعلاقة العهد القديم بالعهد الجديد . إن التراث الابراهيمي الذي يوحد بين الأديان السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والاسلامية) ليس مرتبطاً بارض معينة ولا بفئة اجتماعية محدّدة ، بل هو تراث روحيّ خالص ، اوضح سمته هذه العهد الجديد عندما توجه يسوع بدعوته الى البشرية كافة ، بوصفهم ورثة لملكوت سماوي لا لملكوت ارضي . فلكي تتضح هذه الفكرة لدى الرأي العالم العالمي يجب ان تبذل جهود حثيثة تجبر الهيئات الدينية على اتخاذ موقف صريح من هذا الموضوع .

كما يجب التعاون مع اليهود غير الصهيونيين من امثال إلمربرجر ، وليفين ، وغيرهما ممن يفسرون التوراة وشروحها تفسيراً روحيا . فهؤلاء يرون في قيام دولة الصهاينة بدعة وخروجاً على حقيقة النصوص المقدسة ؛ لا بل يرون فيها انتهاكاً لحرمة هذه النصوص .

أما ارتباط الثورة الفلسطينية بثورة العالم الثالث التي حركت اليسار العالمي ودفعته الى التكتل ضد الامبريالية ، هذا الارتباط امر لاشك فيه . ومع ذلك فللثورة الفلسطينية هويتها ، وبالتالي استراتيجيتها واهدافها ، تلتقي مع بقية الثورات في هدف التحرر وتحقيق المجتمع الاشتراكي . ولكن النظر الى هذه الثورات على انها امر واحد من قبيل الخيال الرومانسي ، لأن الثورة العالمية لم تتمكن ، في مرحلتها الراهنة ، من تكوين صورة واضحة عن مجتمع المستقبل الذي تتطلع نحوه ، ذلك المجتمع الذي سيتجاوز التعارض بين الأمم ليجعل من البشرية كلاً واحداً يستطيع بوحدته أن يحقق انسانية الانسان .

وربما ان اهمية قضية طرحت في هذا اللقاء ، ضمناً ومن ثم صراحة ، هي التساؤل عن معناه ، وبالتالي ، عن هوية كل لقاء مسيحي حول قضية سياسية . ان الندوة العالمية واللجان والهيئات المنبثقة عنها ليست تنظيماً سياسياً ، وهي لن تضع اية ايديولوجيا تقيس بمقياسها نشاط الاحزاب والمنظمات السياسية . ومن ثم فانها ، وان كانت الى جانب الفدائيين ، فليست (وصية) عليهم . فلا يحق لها ان تقحم ذاتها في شؤونهم الداخلية . ان على الفلسطينيين ان يحددوا بانفسهم خططهم ، وان يحلوا ضمن مؤسساتهم خلافاتهم مع بعضهم ، وان يعينوا موقفهم من الحكومات العربية وغير العربية ، ومن الاقطار التقدمية والاقطار الرجعية ، اذ من حقهم ومن واجبهم ، بوصفهم شعباً ، ان يقرروا مصيرهم الذاتي .

واخيراً فان الهيئات الوطنية المجتمعة في باريس لاترى ، كل منها في ذاتها ، منظمة جديدة ومستقلة عن بقية المنظمات التي تدافع عن الكفاح الفدائي ، بل ترى ان تتعاون مع كل من يرغب التعاون معها ، وان تسهم في نشاط كل جماعة تعرف العدالة وتسعى الى تحقيقها .

ولقد شدد مندوب سورية على النقاط التالية :

١ — ان المسيحي ، على مستوى الحياة الاجتماعية والقومية مواطن ، له ككل مواطن ، التزاماته السياسية ، فلا يحق له ان يؤلف مع غيره من المسيحيين تنظيما سياسياً ، بل عليه ان ينطلق من الموقع السياسي الذي اختاره لنفسه ، وان يضيف اليه بُعد التضحية الذي تفرضه عليه رسالة المسيح ، والا فبأي حق ندين دولة الصهاينة ذات النظام الديني — العرقي ؟ وبتعبير آخر فان المسيحية ليست ايديولوجيا بل هي خدمة .

٢ — ان الفلسطينيين جزء لا يتجزأ من الشعب العربي ، وعليهم ان يحدّدوا مصيرهم انطلاقاً من العروبة التي هي معنى وجودهم والمبرر لثورتهم .

٣ — ان مهمة المسيحيين ، على الصعيدين الاجتماعي والسياسي ، هي ، الى جانب ما تقدم ، الاعلام النزيه ، الاعلام بمعناه الواسع ، اي : اولاً ، نشر الخبر الموثوق ، والتعريف بالوقائع كما هي ، فالفلسطينيون الذين شردتهم الصهيونيـــة في ارجاء العالم ، واقعــــة تستصرخ عدالة السماء والارض . ثانياً ، نشر الوثائق السياسية والحقوقية والدينية ، لا تحريفها وتزويرها كما تفعل الدعاية المغرضة في أوروبا ، فقراءة التوراة قراءة صحيحة واجب ديني وسياسي في آن واحد على كل مسيحي ملتزم ، اذ ان هذه القراءة كافية وحدها لادانة الحركة الصهيونية . ثالثاً ، التحليل الموضوعي الذي يجلي معنى الوقائع . فالقارىء العادي يحدد موقعه

في قضية ما بالاستناد الى تعليق صحيفته اليومي على خبر ما . والتنظيمات الحزبية تحدد سياستها بالاستناد الى الدراسات المتوفرة لديها . وبهذا المعنى فإن دور الهيئات الوطنية المنبثقة عن ندوة بيروت كبير جداً . انها ، ان صح التعبير ، فسحات تعقل ، اذ فيها ينفصل المرء عن التزاماته السياسية ، لا ليهجرها ، بل ليعمقها فيفهمها على ضوء المحبة التي انطلقت منها رسالة يسوع .

وقد اضاف احد اللاهوتيين بهذا الصدد ، تعليقاً هاماً جاء فيه : ان كل انسان لاهوتي ، وكل لاهوت سياسة . الدين ليس السياسة ، ولكنه لا يؤلف عالماً خاصاً منفصلا عن الحياة الاجتماعية ، بل هو بعد من ابعادها الاساسية . انه بعد من أبعاد الالتزام ايضاً . ان الدين ينمو من الداخل يتفاعله مع الاحداث حيث تتضح حقيقته . وإذا كان يحلو لبعض رجال الدين او لبعض المؤمنين أن يلتزموا في القضايا الاجتماعية جانب الحياد ، فانهم يدينون انفسهم ويحكمون على وجودهم بالعقم .

ولهذا يجب على المسيحيين ان يعملوا ما بوسعهم لكي تقف سلطـــاتهم الدينية الى جانب الحق الفلسطيني ، لأن هذا الحق عادل ، والدين محبة وعدالة .

المقاومة تتحدث

قلت ان المقاومة الفلسطينية مثلت بمندوبين ، الواحد منهما وفد الى باريس لهذا الغرض ، وهو الذي كان اهم المتحدثين في المؤتمر الصحفي وفي الاجابة عن أسئلة الصحفيين ، فجاء في حديثه وفي اجوبته ما خلاصته :

ان شعبنا قرر ، ككل شعب حر ويريد التحرر ، مقاومة كل اعتداء على حقه في السيادة وفي تقرير المصير . ولكن طريق المقاومة ليست معبدة ، وهي

اليوم اوعر مسلكاً مما كانت عليه في الماضي ؛ وكان عليه ان يشقها خطوة خطوة ضمن الظروف المعقدة التي تعرفون ، فارتكب خطيئات كبيرة ، ولكن ارادته في استعادة ارضه ترسخت وتعمقت . وتجاه هذا الصمود المستميت لجأ المستعمر الى كل الوسائل التي كان بامكانه ان يلجأ اليها ، ولعب بكل الأوراق التي كان بوسعه ان يلعبها ، وهي كثيرة ، اذكر منها اثنتين :

الحرب النفسية التي تقوم على اثارة الشكوك حول قـــدرة الشعب على الصمود ، واصطناع خصومات في قلب حركة المقاومة ، ونشر الشائعات والتزييف والتضخيم ، الخ .

ويخفق في الحرب النفسية فيلجأ الى العنف الدامي ، ولا اراني بحاجة للتذكير بحوادث ايلول الفجعة ، فهي حاضرة في اذهانكم كما هي حاضرة في ذهني ، تؤلمكم كما تؤلمني .

هذه الحرب المزدوجة ثبطت بعض الهمم ، وزرعت بعض الشكوك ، علي ان اعترف بذلك . ولكن الم تكن هذه الهمم خائرة من الأصل ، وهذه الشكوك حاصلة في النفوس الضعيفة قبل ان يستثيرها المستعمر ؟

هناك كثيرون يسقطون على الدرب ، ولكن الشعب يبقى . ولقد كان رد فعل الشعب الفلسطيني غير ما كان يتوقع الخصم فالحرب النفسية والافنائية تحولت في صفوف المقاومة ، إلى أداة فعالة طهرت الثورة من الطفيليات التي اندست بين صفوفها ، ومن الشوائب التي علقت بها . فعدنا الى جذور الثورة ، اي الى ارادة الشعب .

لقد قمنا ببعض التنازلات ، فخيبنا ظن بعض المراقبين ، ولكن هؤلاء

كانوا يتوقعون نصراً قريباً ، ونحن نعلم ان الطريق طويلة . ان الذين يستعجلون الحوادث مخطئون . فمقاومة المستعمر في عصر التقنية طويلة الامد .

لقد تعثرت ثورتنا . ولكن أليس هذا شأن كل ثورة ، تتأرجح دوماً بين الصعود والهبوط . والمهم هو ان نستخلص اسباب الهبوط كي نواصل الصعود. ولهذا كان لمعركة ايلول وما سبقها ولحقها نتائج إيجابية أهمها :

١ — نقد الثورة لذاتها نقداً صارماً .

٢ — لم صفوف المناضلين وتجميعهم حول الهدف الكبير . فالتناقضات تذوب تدريجياً .

لقد مضى وانقضى عهد التظاهرات ، عهد الأعمال الصارخة . فالارهاب وضوف الثورة المضادة جعلت معالم الطريق تتضح امام المناضل العادي .

وسأل صحفي عما اذا كانت هناك مقاومة في داخل الارض المحتلة .

فأجاب المتحدث الرسمي :ان الفلسطينيين اين وأنى كانوا في وضع ثوري. وسأل آخر عن رأي المقاومة في اليهود الموجودين في فلسطين .

فأجاب المتحدث ان لهم مكاناً بيننا، شريطة ان يعتبروا انفسهم مواطنين فلسطينيين ، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما لغيرهم وعلى غيرهم .

واكد المتحدث في الرد عن اسئلة اخرى ، على نقطتين اساسيتين :

الأولى رفض كل الحلول الاستسلامية والتصفوية رفضاً قاطعاً . ثانياً رفض تجزئة فلسطين الى دولتين : فهذه المشروعات وغيرها مما يشبهها ، ان هي إلاجزء من المؤامرة الصهيونية الامبريالية .

وألقى احد اعضاء امانة مربيروت تقريراً تحليلياً دقيقاً أكمل فيه ماجاء في المؤتمر الصحفي . تركز حديثه حول نقطتين متكاملتين : الوضع الداخلي للمقاومة من جهة ، وعلاقة المقاومة بالشعب العربي الأردني من جهة اخرى .

وهو يرى : اولاً ، ان التناقضات الداخلية في صفوف المقاومة تعكس التناقضات العربية . وهذا امر طبيعي بالنسبة لأمة تمتد من الخليج الى المحيط ، وعليها أن تستجمع قواها لاستعادة مقومات وجودها في القرن العشرين .

ثانياً ، ان العلاقة بين المقاومة وبين القوى الشعبية ، في الاردن خاصة ، بدأت عاطفية ، يعوزها الوضوح العقلي الذي هو اساس كل تنظيم ثوري . ولهذا اصبحت المقاومة مكشوفة ، مما مكن الحكم الرجعي الارهابي من السيطرة على الشارع ، وبالتالي من ضرب القوى الفدائية .

وهذا الدرس القاسي هو الذي تستخلص الآن نتائجه الحركة الفدائية . فعلينا كلنا أن نوليها ثقتنا لأنها طليعة الثورة العربية .

نحو ندوة عالمية جديدة

هل تمكنا من تحويل الرأي العام المسيحي خاصة والعالمي عامة ، ولأية درجة ؟ هذا هو السؤال الذي القاه ، في نهاية المطاف ، السيد جورج مونتارون ، مدير صحيفة (الشهادة المسيحية) وصاحب فكرة الندوة العالمية . تساءل وأجاب : لقد كانت وما تزال وسائلنا المادية ضعيفة ، فالمال يعوزنا ، والصحف الكبرى قابلتنا وتقابلنا بالصمت احياناً ، وبالتهجم المغرض احياناً اخرى . فلم توضح فكرتنا بل شوهتها بردود مزيفة . يجب اذاً ألا نخدع انفسنا ، وعلينا ان نرى الواقع كما هو . وهذا الواقع هو ان المؤسسات الصهيونية ، تسيطر ، في العالم الرأسمالي ، على

اهم وسائل الاعلام : الاذاعة ، التلفزيون ، الصحف . ومع ذلك فقد اصبحت لنا نقاط ارتكاز اساسية لا يستهان بها . فالرأي العام الذي كوناه محدود المدى ، ولكنه يترسخ يوماً بعد يوم لأن كلمة الحق تقال فتبقى . اما الباطل فيتبخر .

الطريق ماتزال طويلة ، لأن الثورة الفلسطينية جبهة من جبهات النضال ضد الاستعمار الاساسية . وعلينا أن ندعمها بكل مانملك من قوة .

لقد عقدنا هذا اللقاء المحدود لنستجمع قوانا . ويجب علينا الآن أن نعد العدة لندوة عالمية أخرى كندوة بيروت .

* * *

كانت قد ألفت لجنة اعداد للندوة العالمية الجديدة منذ بدء اللقاء . وفي نهـايته عرضت نتائجها على المؤتمرين ، فاستقر الرأي ، بعد مناقشة طويلة ، على الامور التالية :

١ - مكان الندوة : روما موعد انعقادها : ربيع عام ١٩٧٢

٢ - موضوعاتها : تقرير عام تقدمه امانة السر عن حصيلة نضالها ونضال الهيئات المنبثقة عنها ، وعن حصيلة وقائع الثورة الفلسطينية - اعـادة النظر في مقررات ندوة بيروت لتعميقها على ضوء المعطيات التي تكون قد استجدت - تعميق دراسة الوجه الديني للموضوع - اسماع صوت الفلسطينيين خاصة والعرب عامة للعالم الاوروبي - تعيين موقع الثورة الفلسطينية من الثورة العالمية على ضوء المعطيات الجديدة .

هذا اللقاء المحدود عدداً ، أثار عدداً من المشكلات هي من صميم الثورة العربية ، أثارها وحاول أن يطرحها طرحاً صحيحاً وصادقاً ، على ذاته وعلينا ، نحن العرب . وقد تكون أهمها ، بالنسبة الينا ، التساؤل عن علاقتنا بالقوى السياسية العالمية وبالرأي العام العالمي . لسنوات قليلة خلت ، كنا مجهولين ، أو بالأحرى كانوا يتجاهلوننا لأن الدعاية الصهيونية كانت تخنق صوتنا . فالعروبة كانت دولاً وأمماً وشعوباً . أما الآن فقد اصبحت لنا ، بفضل الحركة الفدائية قواعد حقيقية راسخة هي نقاط ارتكاز انشاطنا في المستقبل . لقد اصبح لنا أصدقاء يحبوننا لأنهم يفهموننا ، ويفهموننا لأنهم يحبوننا .

ذلك أن أبعاد الثورة العربية قد اتضحت وارتسمت خطوطها الكبرى . فهي جبهة اساسية من جبهة النضال ضد الامبريالية العالمية ، في سبيل انشاء انسانية جديدة متضامنة في كفاحها لتحقيق انسانية الانسان .

ان الحركة الفدائية أنشأت ثواراً حقيقيين . وهذا ما أكده لي جان جينه الكاتب الفرنسي المعروف بصدقه وبرفعة فنه . فقد قال لي بعد زيارته لقواعد الفدائيين :

عشت مع أهم الحركات الثورية في العالم ، تلك التي ستقوض أركان الامبريالية في هذا النصف الثاني من القرن العشرين. عشت مع الزنوج في الولايات المتحدة الاميركية ، مع الفيتناميين في الفيتنام شمالاً وجنوباً ، ومع الطلاب في فرنسا وغيرها . وها أنا الآن ، وبعد أن قضيت شهراً مع الفدائيين ، وتحدثت الى عدد كبير من مناضليهم ، أؤكد بأن قواعدهم قواعد ثورية حقيقية . لم اكترث لكل ماقيل ويقال عنهم في المحافل الدولية والعربية ، فما يقوله المعلقون السياسيون هامشي بالنسبة الي .. ولهذا رأيت أن اتصل في فلسطين كما في فيتنام وغيرها ،

بالمناضل العادي ، ذلك الذي يعيش المعركة يومياً . وأنا اقول الآن : بامكانكم أن تثقوا بالمناضل الفلسطيني .

والواقع أن الثورة الفلسطينية نتيجة ، وفي الوقت ذاته نقطة انطلاق جديدة ستعقبها انطلاقات أخرى .

نتيجة لأن حركات ثورية عربية كثيرة سبقتها .

ونقطة انطلاق ، لأننا على أرض فلسطين ولأول مرة ، نجابه الامبريالية وجهاً لوجه بكل طغيانها وصلفها . فما أسميته (محنة) هو في الحقيقة (امتحان) لقدرتنا على الصمود .

بقي علينا أن نفهم أصدقاءنا - مسيحيين كانوا أم غير مسيحيين - اوروبيين كانوا أم غير اوروبيين - أن الثورة العربية على اختلاف جبهاتها ، ثورة واحدة ، لأن الأمة التي تصنعها أمة واحدة .

ان الفعل الثوري فهم . وفي الفهم يتحد القول مع العمل والنظر مع الممارسة .

تنمية العالم الثالث

جهد مشترك أم استمرار للوضع القائم

د. جورج حورانية

في الشهر الثامن من عام ١٩٦٨ طلب السيد مكنمارا ، مدير البنك الدولي ، الى السيد ل. ب. بيرسن ، رئيس وزراء سابق في كندا والحائز على جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٥٧ ، تشكيل لجنة لاعداد دراسة عن « آثار عشرين عاماً من المساعدة للتنمية ، لتقييم النتائج ، وابراز الاخطاء ، واقتراح سياسة من شأنها ان تقود الى تقدم أسرع في المستقبل » .

وقد تألفت هذه اللجنة من سبعة اعضاء من بلدان مختلفة واستعانت بأربعة عشر خبيراً من تسع دول صناعية ونامية وعقدت اجتماعها الاول في تشرين الثاني من العام نفسه في Montqsbriel في كندا .

استغرقت بحوث اللجنة واتصالاتها مع الدول المعنية قرابة عام رفعت بعده تقريرها في ايلول ١٩٦٩ . وقد اعطي التقرير عنوان « شركاء في التنمية » أو « نحو عمل مشترك لتنمية العالم الثالث » كما ورد في الترجمة الفرنسية (١) إلا انه اشترك باسم رئيس

(١) — Rapport Pearson. Vers une Action Commune pour le Developpement du Tiers - Monde. Rapport de la Commission d'Etude du Dexveloppement international. Denoël - Paris 1949

أو — Partners in Develop neut Dport of the dntiruational Commission of dntrrational Developoneut Praeger Publishars, lus. 1949

اللجنة التي اعدته وهو معروف الان باسم « تقرير بيرسن » وقد ذكر واضعوه ان الآراء التي تضمنها لاتمثل غير وجهة نظرهم حول الموضوع .

يقع هذا التقرير في احدى عشر فصلا ، الفصل الأول منه يحوي عرضاً وتلخيصاً لوضع التنمية في العالم والنتائج والتوصيات ، وتبحث الفصول الاخرى في مواضيع التنمية كل على حدة .

في محاولتنا هذه سوف نقوم بعرض سريع لبعض من الفصول العشرة الاخيرة(١) نرجو ان يكون القارىء فكرة سريعة ومقتضبة عن اوضاع التنمية في العالم ، ثم نعود الى عرض مسهب للفصل الأول لأهميته الخاصة .

* * *

ان النمو الاقتصادي للبلدان النامية كان مشجعاً في فترة ١٩٥٠-١٩٦٧ . اذ ان مجمل الناتج القومي لمجموعة هذه البلدان قد حقق خلالها معدل زيادة سنوي بلغ ٨و٤٪ وهو يفوق ماحققته البلدان المتقدمة حالياً خلال الفترات الأولى من تقدمها والذي بلغ :

٢٪ في بريطانيا	١٧٩٠ - ١٩٢٠
٢و٧٪ في المانيا	١٨٥٠ - ١٨٨٠
٤٪ الولايات المتحدة	١٨٢٠ - ١٨٥٠
٤٪ اليابان	١٨٧٦ - ١٩٠٠

كما يلاحظ ان الدول النامية قامت خلال الستينيات بتمويل ٨٥٪ من استثماراتها بواسطة الادخار الداخلي .

في القطاع الزراعي كانت النتائج جيدة مما أدى الى تسميتها « بالثورة الخضراء » . إن تعميم الزراعة واصولها ، وأثر الاسعار قد ساعد على تحقيق تقدم ملحوظ ، وخصوصاً في آسيا ، فبين ١٩٦٠ و ١٩٦٦ بلغ المعدل الوسطي لنمو

---

(١) Revue du Tiers - Monde. Tome XI, № 44, Octobre - Décembre 1970 - P. U. F, Paris Pt. 873 - 876.

هذا القطاع ١٠,٢٪ في البلدان النامية مقابل ١,٨٪ في الدول المتقدمة ، وتبلغ هذه المعدلات المقادير التالية :

١٠,٤٪ في الشرق الاوسط
٣,٧٪ اوربا الجنوبية
٣,٢٪ شرق آسيا
٢,٩٪ اميركا اللاتينية
٢,٤٪ افريقيا
٠,٦ جنوبي آسيا

وفي القطاع الصناعي نلاحظ ايضاً نمواً متسارعاً للبلدان النامية ، وبرغم فقدان القطع الاجنبي والفنيين وصغر الاسواق الداخلية وكثرة العقبات القائمة في وجه التصدير ، فان هذه البلدان قد حققت معدل زيادة بلغ ٧,٣٪ سنوياً مقابل ٥,٦٪ في البلدان الصناعية (عدا البلدان الشيوعية) .

وفي ميدان الهياكل الاساسية لهذه البلدان ، تحققت انجازات لا بأس بها ، فالمعدل الوسطي السنوي لتزايد حركة النقل بواسطة السكك الحديدية قد تجاوز في فترة ١٩٤٨ – ١٩٦٧ في الدول النامية ماهو عليه في الدول المتقدمة :

	دول نامية	دول متقدمة
بضائع	٤,٤٪	١,١٪
ركاب	٢,٩٪	١,٨٪

وقد تحقق التقدم ايام وفي الفترة ايامها في ميدان انتاج الطاقة الكهربائية واستهلاك الصلب .

	دول نامية	دول متقدمة
انتاج الطاقة الكهربائية	٪١٠١٥	٪٧٠٧
استهلاك الصلب	٪ ٨٠١	٪٤١٥

وحققت الصحة العامة نجاحاً سريعاً . فالمعدل الوسطي لعمر الانسان هو حوالي ٥٠ عاماً في الدول النامية . وتجدر الملاحظة بأن هذا التقدم السريع الذي حققته هذه الدول خلال عشرين عاماً لم تستطع الدول المتقدمة تحقيقه في أقل من مائة عام .

وتدل الأرقام على أن اعداد الذين دخلوا المدارس والجامعات في الدول النامية قد تضاعف ثلاث مرات مابين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ .

هذه الانجازات قد تحققت بفضل ادارة تخطط للاقتصاد ، وبفضل مشاركة هذه الدول المتزايدة في التجارة الدولية ، التي تنمو حصة التصدير فيها بمعدل ٦٪ سنوياً . وتجب الملاحظة بأن التجارة الدولية قد ازدادت بمعدل ٩و٦٪ وهـذا يفوق معدل تزايد صادرات الدول النامية مما يفسر التناقص المستمر في نصيبها من المبادلات الدولية ، الذي هبط من ٢٧ ٪ عام ١٩٥٣ الى ١٩ ٪ عام ١٩٦٧ .

بعد هذا العرض السريع والموجز ، سنحاول فيما يلي العودة الى الفصل الاول للتحدث عنه بما يستحقه من تفصيل ودقة .

* * *

ازمة المساعدة [1]

يخلص واضعو التقرير الى ان المساعدة للتنميـة هي على عتبة أزمة ؛ فنسبتها من مجمل الناتج القومي للبلدان الغنية هي في تناقص مستمر برغم

(١) ان الارقام المعطاة تتعلق فقط بنشاط العالم الرأسمالي في هذا المجال .

تزايدها من حيث القيمة المطلقة . ان ضرورة ادراك أهمية هذا الوضع بالنسبة الى البلدان النامية تقود الى الحديث عن اسباب حاجتها للمساعدة .

ان مشكلة التباين ، المتزايد مع الزمن ، بين اقتصاديات الدول النامية واقتصاديات الدول الصناعية هي احدى اكبر مشاكل هذا العصر . وفي سعيها للتخفيف من حدة هذا التباين تعمد هذه البلدان الى تعبئة مواردها والاستعانة بموارد خارجية بغية تنمية اقتصادها . وقد تبين ان مجابهة التخلف بجهود وطنية مدعومة بمساعدة خارجية هي امر ممكن ، مما يساعد على تحسين المستوى المعيشي في الدول الفقيرة وتقريبه من مثيله في الدول الغنية .

وفي العشرين سنة الأخيرة ، اجتاز التعاون الدولي في هذا المجال أشواطاً كبيرة . ففي عام ١٩٦١ حصلت الدول ذات الدخل الضعيف على ٨ مليارات دولار من المساعدات الخارجية ، أي ما يساوي ١٪ تقريباً من مجمل الناتج القومي للدول ذات الدخل المرتفع ، إلا أن هذا المعدل قد هبط ولم يزد مجموع المبالغ المحولة بعد عام ١٩٦١ بمثل زيادة معدل نمو اقتصاد الدول الغنية . مع ذلك بلغ حجم هذه المساعدات (حكومية وخاصة) عام ١٩٦٨ مقدار ١٣٫٨ ملياراً من الدولارات .

وقد تبين أن النمو الاقتصادي في كثير من الدول النامية هو أسرع مما كان عليه لدى الدول الصناعية في نفس الحقبة من تاريخها ، وهذا دليل على عدم وجود أي أساس من الصحة للفكرة القائلة بعجز الأطراف المتخلفة من العالم الاقتصادي عن تحقيق أي تقدم وبعرقلة المشاكل السياسية لكل نمو اقتصادي فيها .

وتظهر الأزمة الآن بتناقص قوة الدعم العالمي للتنمية . وهذا مرده الى

ان بعض البلدان الغنية بدأت تشك في امكانيات هذه التنمية وأهدافها ، فأخذت الريبة وعدم الثقة يسيطران على برامج المساعدات الخارجية .

إلا أن البنى التي أسسها التعاون في سبيل التنمية سوف تتحطم وتزول ، ان لم تتابع الدول الغنية والمتقدمة جهودها في هذا المجال . ولا شيء يشجع على نفي ذلك فحجم المساعدات الخارجية الحكومية لم يتزايد خلال الستينات ولم يتبع وتيرة تزايد الناتج القومي في الدول الغنية ، كما ان مشاركة الولايات المتحدة الأميركية ، التي هي أكبر مصدر لأموال المساعدة ، تتناقص .

ان المفاهيم الخاطئة عن التنمية ، السائدة في الدول التي تقدم المساعدة ، هي أحد أسباب هذا الوضع . فهذه الدول تعتقد بامكانية تحقيق « تنمية فورية » وتجهل أن التنمية هي عملية طويلة الأجل .

كما أن هذه الدول تنتقد أيضاً بشدة تبذير الدول النامية في استعمال المساعدة وتشتكي بأن المساعدة قد تورطها في النزاعات السياسية والاشتباكات المسلحة التي قد تكون الدول المستفيدة مشتركة بها .

ولابد من الاعتراف بأن المساعدة الثنائية غالباً ما كانت تقوم بهدف الحصول على مكاسب سياسية على المدى القصير ، أو تأمين مراكز استراتيجية ، أو تشجيع صادرات الدول التي تقدمها . فالمساعدة الخارجية الهامة التي قدمت في الخمسينيات لم تكن تستهدف المساهمة في النمو الاقتصادي للدول التي تلقتها بقدر ما كانت تستهدف تمكين هذه الدول من الاحتفاظ بقوى مسلحة كبيرة . إلا انه في جميع الاحوال لم يكن الهدف الحقيقي للمساعدة الشروع بتنمية على المدى الطويل . وان جهل الهدف الحقيقي للمساعدة هو الذي يفسر كل الانتقادات التي وجهت لها .

وتجدر الاشارة الى ان بعض الدول قد خففت من مساهمتها في المساعدة للتنمية بسبب تزايد اهتمامها بمشاكلها الداخلية ، من ذلك مكافحة الفقر ، الحقوق المدنية ، التمييز الاقتصادي ، هندسة المدن ، ومشاكل البيئة .

كل ذلك أدى الى التساؤل عن طبيعة علاقات التنمية ، والى البحث عن توجهات جديدة في هذا المجال . وان الأمر ليبدو طبيعياً ان اخذنا بعين الاعتبار الأفكار المسبقة السائدة عن التنمية حين بدأ التعاون في سبيلها . ففي الدول المستقلة حديثاً كثيراً ما اعتبرت التنمية استمراراً على المستوى الاقتصادي للنضال السياسي من اجل الاستقلال كوسيلة لخلق هوية وطنية جديدة أو لقطع العلاقات القديمة والمقيدة . وساد الاعتقاد بأن الغاء السيطرة الاجنبية يفتح الطريق لرخاء يمكن الوصول اليه بسرعة وسهولة . ولم يكن الانتباه متجهاً دوماً نحو طبيعة العقبات التي تعيق التقدم الفوري أو نحو القرارات التي كان يجب اتخاذها للوصول الى نتيجة ما . فأهملت ضرورة زيادة الصادرات ، وأهملت التنمية الزراعية ، وفي كثير من الدول اعتبرت التنمية نتيجة فقط للقرارات المأخوذة على المستويات العليا . وفي سبيل زيادة ثروات بعض الجماعات أو الأفراد تجاهل البعض الضرورة الحيوية التي يحتمها اشراك جماهير الشعب في التنمية .

كما أن الدول التي تقدم المساعدة والدول المستفيدة منها كانت تعتبر ان محاولة تكرار الثورة الصناعية على وتيرة سريعة ستحقق تنمية الدول ذات الدخل الضعيف ، لذا أهمل البحث في اسباب الركود ونتائجه . وبولغ كثيراً في أهمية بعض مشاريع الاستثمار ، وساد الاعتقاد بأن موارد متواضعة نسبياً من

المساعدة الخارجية ، تستطيع ، مع الجهود الوطني ، تحقيق تغيير ملحوظ في حياة الملايين من الناس .

ولكن لابد من الاعتراف بأن هذه المشكلات بدأت تلقى تفهماً أكبر ، فتحققت بعض النتائج الجيدة بفضل تعديل البرامج السابقة وربطها الى بعضها البعض . فالدول النامية تزداد اليوم اقتناعاً بضرورة توجيه سياستها الاقتصادية نحو الخارج من أجل تمكين صادراتها من المنافسة . كما ازداد الاقتناع أيضاً بأنه لايمكن الاستغناء عن التنمية الزراعية في سبيل رفع مستوى معيشة الغالبية العظمى من أفراد الشعب وتأمين الاسواق لصناعتهم التي هي في طور التوسع . فتخففت بعض انظمة الرقابة التي كانت تعيق التنمية واعطيت أهمية متزايدة لتعبئة الموارد وتوزيعها . وصدرت قرارات تقوي من المبادرة الفردية . كما أعيد الى الاذهان بأن التنمية هي قضية تخص البلد بالذات ، وأن اية مساعدة خارجية لاتكفي ان لم يكن هناك ارادة قومية مصممة على تحقيق التغييرات الأساسية الضرورية .

وقد اخذ العالم يعترف اليوم بأن آثار مساهمة الموارد الخارجية مرتبطة بفعالية استعمال الدول المستفيدة لمواردها الخاصة وبسياسة هذه الدول في المجالين الاقتصادي والاجتماعي . كما تعلم الجميع ان التعاون من أجل التنمية هو أكثر من قضية انتقال الرساميل من بلد لآخر ، لأن هذا التعاون يحتم بنـــاء شكل جديد من العلاقات المبنية على التفاهم والاحترام المتبادل ، كما يتحتم على جميع الاطراف المعنية . ان شاءت أن تحقق لذاتها علاقات جيدة ، أن تسعى دائماً الى القيام بفحص مستمر للنتائج المتحققة دون السماح للمصالح أو للضغوط السياسية بالتدخل . ويشترط في المساعدة ، لكي تأتي بثمارها المرجوة أن تتسم

بالاستمرار والانتظام . كما أن توقفها المؤقت أو انقطاعها النهائي لابد وان تنجم عنهما نتائج خطيرة في البلد المستفيد اذ ، يغدو عاجزاً عن رسم أية خطة للمستقبل .

إذا كان الثراء لايعطي البلد الغني والقوي ، بسبب المساعدة التي يقدمها، حق السيطرة على الحياة الوطنية في بلد آخر ، فانه من المستحيل ، في الوقت نفسه ، على بلد ما أن يحوّل الى الخارج اموالاً دون اقناع مواطنيه بأن هذه الأموال سوف تستعمل فعلاً لبلوغ اهداف تنمية مقبولة وبأن الدول المستفيدة سوف تبذل من جهتها الجهود الضرورية لتحسين وضعها الخاص . لذا وجب أن ترتكز علاقات التنمية ، التي هي أساس سياسة المساعدة الفعالة ، على توزيع واضح كل الوضوح لجميع المسؤوليات بحيث تؤخذ بعين الاعتبار مصالح الطرفين ومتطلباتها .

ماهو المقصود من المساعدة ؟

ان البحث في هذا السؤال قد يكشف عن أسباب رغبة البعض في تخفيف التعاون من أجل التنمية للتنمية، كما قد يكشف عن ضرورات زيادة هذا التعاون . لذا وجب تحديد ماتستطيع المساعدة أن تحققه ، ومالا تستطيع أن تحققه .

دون التقليل من أهمية الايديولوجيات في احداث التقدم الاجتماعي والاقتصادي فقد أصبح ثابتاً أن البلدان النامية لاتسير جميعها في خط تطور سياسي واحد . فالمهم هو التركيز على أن التنمية الحقيقية تحدث تغيرات عميقة

في المجتمع تقضي بافساح المجال أمام جميع فئات الشعب للمشاركة بها ، بحيث ينشأ لديها الشعور بأنها هي التي تقود فعلاً هذه التغيرات ، فتنصهر فيها وتتلاحم معها فالتطور في حد ذاته يولد الصعوبات في حين ان اشراك الجميع فيه يضمن عدم انفجار البنيان الاجتماعي .

هذا على الصعيد الداخلي ، اما على صعيد العلاقات الدولية ، فالتنمية لم تشكل يوماً ضمانة لزوال التصرفات العدائية بين الدول ، والتاريخ يذكر ان بعض الدول التي قطعت اشواطاً كبيرة في التقدم وحققت نمواً سريعاً ، لم تتوان عن القيام بتصرفات عدائية وغير مسؤولة تجاه دول أخرى .

أمام هذه الوقائع ، كيف السبيل الى تحديد هدف التعاون الدولي من أجل التنميـــة ؟ مع العلم بأن هـــذا التعاون لا يستطيع ردم كل الثغرات والغاء كل تفرقة ، بل هو يحاول التقليل من الفوارق الموجودة وازالة المظالم . انه يقوم على مساعدة البلدان الفقيرة على الدخول ، بطريقتها الخاصة ، في العصر الصناعي والتكنولوجي بحيث يبطل تدريجياً تقسيم العالم الى دول فقيرة واخرى غنية أو دول تتمتع بجميع الامتيازات واخرى محرومة منها .

وان كان من الضروري اهتمام الدول الغنيـــة والمتقدمة بطبقاتها الاجتماعية المحرومة ، فانه من الضروري في الوقت نفسه أن تهتم هذه الدول بمصير الشعوب الأخرى التي هي دونها حظاً .

هنا يصبح طرح السؤال الثاني ضرورياً : ان كانت الدول الغنية مأخوذة بمشاكلها الداخلية الاقتصادية والاجتماعية ، فلماذا يتوجب عليها الاهتمام بمساعدة الدول الأخرى ؟

ان ابسط جواب على هذا السؤال هو اخلاقي : العدل هو في أن يتقاسم الاغنياء مع الفقراء .

هذا الاهتمام بحاجات الدول الأخرى هو تعبير عن شعور جديد في العصر الحديث بأن العالم كله وحدة وبأننا جزء من مجتمع عالمي . وهـــذا الشعور يختلف تماماً عن الواجب الاخلاقي الذي يشعر به الناس تجاه بعضهم البعض داخل وحدتهم الوطنية ذاتها ، وهو الذي يجعل من الرغبة في المساعدة اكثر من دافع اخلاقي فردي ، بحيث يحولها الى نوع من الزام سياسي واجتماعي للحكومات التي بدأت بقبول درجة معينة من المسؤولية في علاقاتها المشتركة.

ان اهتمام الدول الغنية اذن بتحسين الشروط الحياتية لا يمكن ان يكون انتقائياً لأن الأسس الأخلاقية والاجتماعية التي يقوم عليها مجتمع هذه الدول لابد وان توضع موضع الشك ، ان ركزت هـــذه الدول قواها على محو الفقر والتخلف عن أراضيها دون الاهتمام ببؤس الآخرين .

على أن هذه الدوافع الأخلاقية ، على أهميتها ، لا تشكل وحدها الأسباب التي تقضي بالمساعدة للتنمية الدولية . فهناك أيضاً أسباب تنبع من مصلحة خاصة تشكل قاعدة محترمـــة وصالحة لعمل ولسياسة دوليين في هـذا المجال . فان أكبر استعمال ممكن لكل الموارد البشرية والمادية في العالم ، كما لا يستطيع تحقيقه إلا تعاون دولي شامل ، لا يعود بالفائدة فقط على الدول التي هي الآن ضعيفة اقتصادياً ، انما يعود بالفائدة أيضاً على الدول الغنيـــة والقوية ، بفضل المكاسب المباشرة التي تحققها علاقات المساعدة الثنائية من جهة ، وبفضل ما تحققه التنمية الدولية من تزايد في التجارة العالمية من جهة أخرى ، إلا انـــه لا يصح التوقع بأن التنمية تحقق منافع فورية للبلد الذي يقدم المساعدة .

على كل حال ، ان كان من الطبيعي والمعقول ان يخلق التعاون أو يرسخ علاقات صداقات سياسية مبنية على الاحترام المتبادل ، فانه لا يصح ان يمارس بقصد الوصول الى تحالف سياسي أو بقصد الحصول على مكاسب سياسية على المدى القصير . فالمساعدة للتنمية لا تفسح المجال ، بشكل عام، لابتياع اصدقاء حقيقيين ، لأن علاقات المساعدة كثيراً ما تكون محرجة ولغدو غير محتملة ان كانت مشروطة بدعم سياسي .

إن مفهوم المصلحة الوطنية نفسه قد تغير بسبب النتائج المذهلة التي حققتها التكنولوجيا الحديثة والتي جعلت من مصير بلد ما مرتبط بعد فترة من الزمن بمصير العالم نفسه ، وان كنا نرغب في أن يعم العالم السلام والرخاء فعلينا الاعراب عن اهتمام مشترك بالمشكلات المشتركة لكل الشعوب .

إننا نعلم الآن أن حرباً ما في أي بقعة من العالم تعنينا جميعاً وانّا قد نجد انفسنا اطرافاً فيها ، وان تكون البيئة في منطقة ما قد يؤثر على الحياة في كل الكواكب وان المجاعات والامراض لاتعرف الحدود ، وان التنمية تطرح مشاكل مشتركة على البلدان الصناعية والبلدان النامية . أفلا تواجه عالم اليوم بأسره مشاكل التغذية واصلاح التعليم والتزايد المفرط في النمو السكاني ؟

وهنالك ظاهرة جديدة لايمكن إنكارها وهي تتمثل بالشعور بالانتماء الى مجتمع عالمي . وهي تبرز خاصة لدى الجيل الجديد الذي يبدو انه يعي بعمق الطابع الدولي للاحداث العالمية ،والذي يبدي بالتـالي اهتمامه بتنمية البشرية بأسرها. ونحن نجد أن كثيراً من الشباب يقدمون الآن خدماتهم وطاقاتهم في خدمة مجتمع يتجاوز بابعاده وطنهم الخاص . فهذا المفهوم المجتمع العالمي يشكل سبباً رئيسياً للتعاون الدولي . انه دليل ثقة بالمستقبل واقتناع اكيد بضرورة البـدء

بالعمل من أجل هذا التعاون . إلا أن اكثر ماهم في هذه الحال هو تعهد كل حكومة بالتعاون مع الحكومات الأخرى فيما تضمن لكل الشعوب امكانية معقولة للحصول على نصيبهم من موارد العالم التي يجب استثمارها لمصلحة الجميع . إن أمراً كهذا يحتم رفضاً شاملاً لكل ماهو قائم من تباين مفرط وفاضح في مستويات المعيشة داخل كل بلد وبين بلد وآخر . لقد وقبلت كل الحكومات التعهد بمساعدة الدول الفقيرة كيما تتحرر من سلاسل البؤس واذا كان هذا التعهد لم يحترم دوماًفهذا لايفقدمالتحقق حتى الآن قيمته ، ويجعل من كل تباطؤ في ماشرع به من أجل التنمية عملاً مؤسفاً .

إلا أنه مهما جرى على المستوى الدولي ،فان الدول الفقيرة قد اختارت التنمية ، وهي جزء من ثورتها التي لم تكتمل بعد ، وقدقررت أن تؤمن لنفسها ولأجيالها المقبلة حياة أفضل . والاسئلة الوحيدة التي تطرح في هذا المجال هي معرفة كيف ستتحقق هذه التنمية ، بأية وتيرة ، وبأية وسائل وبأي ثمن وما هو الهدف المحدد والملموس لهذه التنمية ؟

إن هدف مجهودالتنمية الدولية هوتمكين الدول التي لم تكتمل تنميتها بعدمن تحقيق رغبتها في تقدم اقتصادي في اقرب وقت ممكن دون أن تضطر للجوء الى مساعدة خارجية .

وهذه التنمية ان لم تكن فورية فهي ممكنة ، وما حققته الدول النامية خلال العشرين سنة الأخيرة يؤكد ذلك . فالامكانيات كبيرة ولا بأس ان نتج عن تسارع الدول على طريق التقدم بعضاً من الاضطراب ، فذلك طبيعي ، ونجاحها شرط من شروط تحقيق السلام والامان والاستقرار على هذا الكوكب .

وعلى الدول النامية المشاركة في وضع نظام دولي يمكن الجميع من العيش بحرية وكرامة وفي مستوى لائق .

« النتيجة »

تعتبر فترة ما بعد الحرب فترة تغييرات هامة لكثير من الدول النامية ، فقد قامت في افريقيا وآسيا اكثر من ٥٠ دولة جديدة ، وقد أصبح ، بالنسبة لهذه الدول جميعاً ، الاسراع في التطور الاقتصادي والاجتماعي واحداً من الاهداف الوطنية الرئيسية . والجدير بالذكر ان التغييرات السياسية التي حدثت في هذه الدول أحدثت من الاضطرابات أقل مما كان يخشى .

أما نتائج التنمية فهي جيدة وافضل مما كان يعتقد . فالمعدل الوسطي لنمو مجمل الناتج القومي في البلدان النامية كان ٥ ٪ سنوياً في الستينات وهو يصبح ٢،٥ ٪ لدى ادخال عامل تزايد السكان . وهذا الرقم يعكس ، بمقارنته مع الماضي ، تسارعاً ملحوظاً .

ان المتوسط العالمي يخفي تبايناً بين الدول ، وفي كثير منها لا يزال الاقتصاد على ما هو عليه . إلا ان النمو السريع الذي تحقق في بقية البلدان هو دليل على امكانية قهر التخلف . والانجازات الكبيرة التي تحققت في كثير من المناطق هي أساس لتقدم لاحق .

فالزراعة التي أدى جمودها الى التفكير باستحالة تنميتها بشكل سريع ، بدأت تتقدم بسرعة مذهلة ، خصوصاً في آسيا ، بفضل أسمدة جديدة وتحسين وسائل الري ، وسياسة تحفز المزارعين على زيادة المردود بواسطة تشجيعهم وتأمين عوامل الانتاج .

وتتغير الآن معالم العالم النامي بفضل احداث شبكات تزداد اتساعاً من الطرقات والسكك الحديدية وخطوط المواصلات والشبكات اللاسلكية . كما ان اعداد الذين دخلوا المدارس بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ قد تضاعفت ثلاث مرات . أما التحسين الذي طرأ على الشروط الصحية فقد كان ممتازاً ، فالاوبئة الكبيرة لم تعد موجودة ومعدلات الوفاة تضاءلت بسرعة تفوق تضاؤلها في السابق في الدول الصناعية .

وما يبدو أكثر أهمية هو تزايد المعرفة حول طريقة ادارة اقتصاد الدول النامية، وحول ما هو ضروري لتحقيق النمو الاقتصادي .

الا ان هناك وجهات نظر لا ترى في هذه النتائج ما يبرر مثل هذا التفاؤل وهي تجد أن العقبات القائمة في وجه تحقيق تقدم جديد ، لا تزال ضخمة .

ذلك بأن تسارع النمو السكاني يضعف الى حد كبير من النتائج المحققة وسوف تزداد الحاجة الى المستشفيات والمدارس والمساكن . وفي كثير من الدول تبلغ البطالة والعمالة الضعيفة معدلات خطيرة وقد يزداد الوضع خطورة في السبعينيات . أما نسبة الطلاب الذين يتمكنون من اتمام دراستهم بعد دخولهم المدارس فتبلغ ٣٠٪ ونادراً ما يجد هؤلاء العمل الملائم لهم ، كما عجزت التربية الوطنية عن المساهمة بالقدر الذي تستطيعه في التجديد .

وهنالك مشاكل جديدة نشأت عن النجاح الذي تحقق في القطاع الزراعي ، وهي تستدعي حلولاً سريعة ان اردنا تثبيت النتائج المحققة وتحسينها . أما هذه المشاكل فهي : حماية الانواع الجديدة من المزروعات من الامراض ، توفير وسائل مواصلات جديدة ، التوزيع والتسليف . وفي كثير من البلدان لايتوفر الاهتمام الكافي بالاصلاح الزراعي وبالتنمية الريفية .

ان الحلول التجريبية هي التي تسود محاولة تحقيق التوازن بين العمل الحكومي والمبادرة الفردية في القطاعات الصناعية والمالية ، كما ان كثيراً من البلدان لا تعلق بعد الاهتمام الكافي على ضرورة خلق طبقة من المقاولين الاكفاء .

ان المبالغة في الاعتماد على الحماية الجمركية وعلى ايجاد بديل للمستوردات ، وعدم البحث عن صادرات جديدة تتصدى للمنافسة الاجنبية يؤديان الى عجز البلدان النامية عن الاستفادة من نتائج تزايد المبادلات الدولية .

كما ان الاستدانة الخارجية للدول النامية ، وهي تشمل مساعدات التنمية واعتمادات المصدرين لها ، قد ارتفعت بسرعة وبلغت ٥٠ مليار دولار . وتزداد تكاليفها بمعدل ١٧ ٪ سنوياً فتمتص جزءاً كبيراً من عوائد التصدير التي تزداد بمعدل ٦٪ سنوياً تقريباً . .

ان منجزات التنمية في فترة ما بعد الحرب قد بينت ان مساهمة المجتمع الدولي ، التي غالباً ما أخذت طابع المساعدة الخارجية ، هي ذات أهمية اساسية . ومع ان كل الموارد الخارجية لم تقول أكثر من ١٥ ٪ من استثمارات الدول النامية ، ١٠ ٪ في حين مول من هذه

الاستثمارات بواسطة المساعدة الخارجية ، فان هذه الموارد ساهمت بادخال التقنية الحديثة في هذه البلدان، كما ساهمت بالغاء السدود المعيقة، خصوصاً نقص القطع الاجنبي. وكل البلدان التي حققت تنمية مربعة ، باستثناء الدول المصدرة للنفط ، قد تلقت موارد خارجية هامة . بالمقابل ، يجب الاعتراف بان المساعدة الخارجية لم تنشط دوماً النمو الاقتصادي، وليس في ذلك أي غرابة، فغالباً ما كانت هذه المساعدة تقدم لغايات غير التنمية .

ان النتائج المحققة في كثير من البلدان النامية قد زادت من قدرتها على استعمال ناجع للموارد الاضافية ، إلا ان حجم المساعدة لم يزد في السنين الاخيرة ، كما ان الشروط التي ترافقها غدت اكثر دقة وتضييقاً . وقد بات من الضروري ، لاستمرار عملية التنمية وتجاوزها الصعاب ، ان تتكامل سياسات المساعدة والاستثمارات والمبادلات التجارية في استراتيجية واحدة ترتكز بشكل متين على الانجازات التي حققتها الدول النامية ذاتها وعلى التزامات تتعهد الدول الغنية بتنفيذها على أمد طويل .

مشروع خطة استراتيجية

ان توصياتنا بشأن العمل الذي يجب الشروع به موجهة الى الدول النامية والدول الصناعية والمنظمات الدولية . وان لكل من هذه التوصيات شمول وأهمية مختلفان . ان بعضها حديث وبعضها يأخذ باقتراحات سبق لغيرنا أن تقدم بها . وسنبسط أولاً تلك التي تتعلق بالاطار العام للاقتصاد العالمي ثم التدابير التي نرى وجوب اتخاذها في مضمار المساعدة الخارجية .

٦ ـــ وضع نظام مبادلات دولية حرة وعادلة

إن الشرط الأولي لتنمية دولية سريعة هو توسع التجارة الدولية توسعاً حقيقياً ومستمراً ، وان رغبت الدول النامية في الاستفادة من هذا التوسع فعليها أن تزيد من تطلعاتها نحو الخارج لتصبح في عداد الدول التي تتمكن صادراتها من المنافسة في السوق العالمية . وتجب الاضافة بأن السياسة التجارية للدول المتقدمة تضع العديد من العوائق في وجه تزايد حصة تصدير الدول التي هي دونها من حيث التقدم الاقتصادي .

وهذا يقتضي من الدول المتقدمة أن تلغي رسوم الاستيراد والضرائب غير المباشرة المبالغ بها على البضائع الأساسية التي لا تنتجها بنفسها مما يعيق تزايد استهلاكها لهذه البضائع .

ويقتضيها أيضاً أن تزيد مستورداتها من العالم النامي من المحاصيل الزراعية التي لها أهمية اساسية فيه والتي ينتجها في الوقت نفسه العالم الصناعي .

وإذا ما نظرنا الى الأمور من زاوية سياسة طويلة الأمد ، فانه يجدر بالدول النامية العمل على تصدير أنواع جديدة من البضائع ، كان تصدير المنتجات المصنعة قد حقق زيادة جيدة في العقدين الأخيرة . وللسير قدماً في هذا الايجابيات من الضروري أن تزول بأقرب وقت ممكن خلال السبعينيات القيود الكمية المفروضة على استيراد المنتجات التي تصنعها الدول النامية . ويجب تنفيذ الاقتراحات المتعلقة بهذا الموضوع .

كما يجب تحرير المستوردات الآتية من الدول الناميـــة بموجب الروح والتدابير إياها التي اتخذت في سبيل تحرير المبادلات بين الدول الصناعية .

أما زيادة المبادلات بين الدول النامية فأمر لابد منه ، لذلك يجدر بهذه الدول ان تعقد اتفاقاً عامـــاً يقضي بمنح تنازلات مشتركة في موضوع التعرفات الجمركية . وعلى المنظمات الدولية المختصة الشروع بدراسة اتفاقات دفع تناسب خطة التوسع في هذه المبادلات .

واننا لنرى ان المؤسسات المختصة ، على المستوى الاقليمي ، بتنشيط التجارة والتكامل الاقتصادي كمصارف التنمية واتحادات الدفع ، يجب ان تتلقى دعماً مالياً أكبر .. ونقترح ايضاً ان تعمل المصارف الاقليمية على تقديم تسهيلات لتحويل صادرات الدول النامية ، اذ ان هذه الدول لا تستطيع بدون ذلك مواجهة المنافسة ، خاصة في اسواق بضائع التجهيزات .

٢ ــ انماء مساهمة الرساميل الخارجية الخاصة التي تستفيد منها الدول المستفيدة بقدر ما يستفيد منها المستثمرون انفسهم

ان الدول النامية تتردد احياناً في قبول الاستثمارات الخارجية الكبيرة المباشرة . الا انها تقبل بصورة عامة تزايداً في الاستثمارات الخاصة التي تستطيع المساهمة الجيدة في تنميتها . اما الذي يحدد هذا التزايد فهو المناخ العام الذي يحيط بنشاطات القطاع الخاص في البلد المضيف . لذلك بات من الضروري البحث عن كل ما لا يشجع هـذه النشاطات وازالته بطريقة تتفق والأهـــداف الوطنية المشروعة . كما بات من الضروري العمل على ايجاد نوع من الاستقرار في السياسة المتبعة حيال هذه الاستثمارات وكذلك العمل على تبسيط عام للاجراءات الادارية .

كما يتحتم دعم جميع البرامج الرامية الى التخفيف من المخاطر الخاصة التي تتعرض لها الاستثمارات في الدول الناميـــة . ومن المستحسن أن تتضمن السياسة

الصناعية والمالية اهدافاً ترمي الى زيادة القدر المخصص من هذه الاستثمارات لاعداد اليد العاملة المهني في الصناعة المحلية وفي التنمية الوطنية ؛ ويجدر بها ايضاً ان تتضمن اهدافاً ترمي الى التخفيف من الحماية الجمركية ومن الاعفاءات المالية المبالغ بها . وهنا تستطيع المنظمات الدولية ان تلعب دورها في تقديم المزيد من النصائح حول السياسة الصناعية وحول ما يجب اتخاذه من تدابير بصدد الاستثمارات الخارجية .

أما فيما يتعلق بما تتلقاه الدول النامية من اعتمادات للتصدير فقد تبين ان المبالغة في حجم هذه الاعتمادات قد سبب في بعض الحالات ازمات حادة . وإذا كان لابد من الاعتراف بمسؤولية الدول النامية في حدوث هذه الازمات ، فإنه يرجى من الحكومة التي تمنح هذه الاعتمادات ان تمارس نوعاً من الاعتدال في منحها ، بحيث يصار الى وقفها ، اذا كان الاستمرار في تقديمها يشكل خطراً على الدول المستفيدة منها .

ما من شك ان الدور الذي تلعبه الاستثمارات التجارية الخاصة في النمو الاقتصادي للدول النامية هو دور هام ، إلا انها لا تستطيع الحلول محل المساعدة الحكومية التي تعتبر الشرط الأولي المشجع لهذه الاستثمارات من حيث مساهمتها في ترسيخ الهيكل الداخلي للبنية الاقتصادية (طرق ، مدارس ، مستشفيات) .

٣ — اشراك مختلف الاطراف بشكل أفضل في مساعدات التنمية وتوضيح الهدف منها ، وتقسيم أفضل للجهود

مهما تعددت في السابق أهداف المساعدة ودوافعها ، فإن الهدف الذي يجب ان يكون واضحاً من زيادة المساعدة الخارجية هو مساندة الدول النامية

الوصول الى تحقيق معدل نمو مناسب ومستمر . وهـــذا يقضي بوجود علاقات تعامل قوية بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

ان هدف السبعينيات يجب أن يكون زيادة المعدل السنوي لنمو الناتج الوطني من ٥ الى ٦٪ على الأقل . وهي زيادة ممكنة في كثير من البلدان ، امـا البـــلدان التي تستطيع بلوغ وتيرة ٦٪ سنوياً فستكون قادرة على تحقيق تزايد تدريجي في معدل تكوين رأس المال لديها اما تلك التي تهتم بتنشيط الصادرات وتنميتها ، فعليها أن تكون قادرة قبل نهاية هـذا القرن على المساهمة في الاقتصاد الدولي،وان تتمكن ، دون اضطرارها للجوء الى الرساميل الخارجية ، من تمويل الاستثمارات والاستيرادات التي تحتاج اليها للاستمرار في التنمية السريعة .

ولا يخفى ان مناقشة نتائج المساعدة وتقييمها لما أهمية كبرى وان على البنك الدولي والمصارف الاقليمية العمل على تحقيق ذلك .

٤ ــ زيادة حجم المساعدة

ان تحقيق نمو مقداره ٦٪ سنوياً يتطلب مساهمة الموارد الخارجية (مساعدة حكومية واستثمارات خاصة) بمقدار يعادل ١٪ من مجمل الناتج القومي للبلدان الغنية ، وحبذا لو عملت هذه البلدان على تحقيق ذلك قبـل عام ١٩٧٥ .

في الوقت نفسه هنـاك حاجة ماسة الى هبـات وقروض بمعدل فائدة منخفض . وهـذه هي المساعدة الفعلية . كما أنه من الضروري زيادة حجم المساعدة الحكومية التي بلغت عام ١٩٦٨ نسبة وسطية تقارب ٠٫٣٩ ٪ من مجمل الناتج القومي للبلدان التي تقدم المساعدة ، ومن المفروض أن تزيد هذه

النسبة حتى عام ١٩٧٥، وعلى ابعد تقدير حتى عام ١٩٨٠ لتبلغ ٧٠ر٠٪ ،علماً بأن كثيراً من الدول التي تقدم المساعدة لن تتمكن من تحقيق ذلك دون بذل جهد كبير .

إلا أن بعض الدول قد حققت هذا الهدف ووصلت بحجم المساعدة الحكومية التي تقدمها الى ٧٠ر٠٪ من مجمل الناتج القومي لديها، فإذا اضفنا الى ذلك الاستثمارات الخاصة فاننا نجدها قد تجاوزت حدود ١ ٪ .

فمثلاً ، تقدم فرنسا ١٫٢٤٪ ، هولندا ١٫١٪ ، ألمانيا الغربية ١٫٢٤٪ ، بلجيكا ١٫١٥٪ ، وسويسرا ١٫٢٦٪

ويجدر بالدول التي تشكل المواد الغذائية مقداراً كبيراً من حجم ما تقدمه من مساعدة ، أن تعمل على تقديم مساعدة بأشكال أخرى ، لأن حاجات الدول النامية لهذه المواد تتناقص مع الزمن .

٥ ـــ حل مشكلة تزايد الديون

ان تكاليف الدين قد غدت في عداد المصاعب التي تواجهها الدول النامية وان صحت الرغبة في استدراك ماتسببه الاستدانة من أزمات، فعلى الدول النامية ان تمارس سياسة مالية معقولة. وعلى الدول التي تقدم المساعدة العمل مجتمعة على توحيد الشروط المساعدة . ويجب الاعتراف بأن تخفيف الدين يشكل مساعدة مشروعة .

٦ ـــ جعل ادارة المساعدة أكثر فعالية

من الضروري عقد اجتماع دولي لدراسة العوائق التي تسببها الاجراءات المعقدة في تقديم المساعدة واستعمالاتها ، والعمل على الغائها . كما انه من الضروري أيضاً أن لا تقل مدة استحقاق المساعدة عن ثلاث سنوات .

كما أن ربط المساعدة بمشتريات من البلد الذي يقدمها يفوض نفقات مباشرة وغير مباشرة على الدول المستفيدة ويعيق المبادلات العالمية . وقد تكون مشاكل ميزان المدفوعات في البلدان التي تقدم المساعدة هي السبب في تقديم مساعدة مشـــروطة (مشتريات) . لذلك فان اصدار صندوق النقد الدولي لحقوق سحب خاصة جديدة قد يساعد هذه البلدان تدريجياً على تقديم مساعدة غير مشروطة بالقيام بمشتريات منها . ومن الضروري أيضـــاً السماح للدول النامية باستعمال المساعدة في مشتريات من دول نامية أخرى .

ان المساعدة الغذائية تشكل حالة خاصة من المساعدة المشروطة ، وانه لمن المتوقع ان يتمكن عدد متزايد من البلدان النامية فقط من الاستغناء عن مستوردات الحبوب ، ومن أن يصبح مصـــدراً لها . لذا وجب التشجيع على إبدال الحبوب بسلع اخرى تستطيع الدول المستفيدة أن تختار منها ما يلائمها ، حسب افضلياتها ، وبطريقة لا تعرقل نمو اقتصادها .

٧ ـــ توجيه المعونة الفنية توجيهاً جديداً

ان النمو السريع الذي حققته المعونة الفنية في الستينات ، والذي تجاوز معدل ١٠ ٪ سنوياً ، قد يكون السبب في كثير من ظاهرات القصور التي قلصت قيمته الحقيقية . فغالباً ما لوحظ ان هذه المعونة لم تتمكن ، لعدم ارتباطها المباشر بالمساعدة المالية ، من التوفيق بين مناهجها وأهدافها من جهة ، وبين الحاجات الحقيقية للدول النامية من جهة اخرى ، خصوصاً في ميدان الزراعة والتعليم .

والحق يقال أن عدم ارتباط الخبراء بمؤسسات ، يجعلهم يعملون بشكل منعزل ، الأمر الذي يقلص فعاليـة عملهم . وهذا يحتم على كل من القطاع العام

والقطاع الخاص في الدول التي تقدم المساعدة تنمية نشاطات المعونة الفنيـة . كما يتوجب دعم امكانيات الجهاز الدولي والوطني لهذه المعونة .

٨ — تبطيء النمو السكاني

لكل الناس الحق في معرفة وسائل الحد من الولادات ، وفي الحصول عليها . ولا يجوز أن يولد اطفال اهلهم غـير راغبين فيهم ، فالنمو السكاني لا يسبب فقط نتائج مؤسفة للوالدين والعائلات، بل هو أيضاً يعيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية في كثير من الدول النامية . وقـــد بات من الضروري لفت انتباه البلدان التي لم تستوعب بعد اتساع المشاكل السكانية الى هذا الواقع ، فتعمد إلى اتخاذ التدابير المناسبة نظراً لما تحدثه هذه المشاكل من آثار على تنميتها . ويجب في الوقت نفسه مساندة من يتبع سياسة ترمي الى تقليص قوي لمعدل الولادات . كما انه يهم الدول التي تقدم المساعدة معرفة مدى اهتمام الدول المستفيدة بمشاكلهـا السكانية .

وهنا تستطيع المنظمات الدولية أن تلعب دوراً هاماً خصوصاً في تكوين المختصين في علم السكان وفي تحديد النسل . ويدعم التقرير الاقتراح القائل بضرورة تعيين مفوض للأمم المتحدة للسكان . وعلى البنـك الدولي أن يسعى مع منظمـة الصحة العالمية الى طرح برنامج دولي يرمي الى تعبئة وسائل البحث في تحديد النسل .

ان زيادة السكان هي مشكلة كبيرة تتجاوز بأبعادها موضوع تحـديد النسـل ، لذلك ، فان سياسة اجتماعية تقدم للفرد ضمانات أخرى غير التي تقدمهـا لعائلته قد تنقص من الحاجة والرغبة في تكوين عائلات كبيرة .

٩ــ اعطاء شكل جديد للمساعدة المخصصة للتعليم والبحث

ان المساعدة التي قدمت للتعليم قد ساهمت خصوصاً في حفظ المناهج التقليدية ونادراً ماجرى البحث عن مناهج وبرامج جديدة تقدمها الدول النامية لنفسها . لذلك بات من الضروري توجيه الاهتمام نحو تمويل ذلك . كما انه من الضروري بذل جهود اكبر لتحسين المعارف العلمية والفنية في هذه الدول عن طريق ايجاد معاهد للبحوث وجمعيات للتطبيق العملي .

وانه ليتحتم على الدول الصناعية أن تعمل على تخصيص جزء من وسائل البحث والتنمية التكنولوجية لديها لمعالجة مشاكل الدول النامية من جهة ، والمساهمة من جهة اخرى في ايجاد مراكز دولية واقليمية للبحث والتنمية التكنولوجية تتصدى لمواضيع ذات فائدة عامة ، من ذلك الزراعة الاستوائية ، التعليم وتنظيم المدن .

١٠ ــ تقوية نظام المساعدة المتعددة الاطراف

من الضروري أن ترتفع حصة المساعدة التي تقدم بواسطة المنظمات الدولية من معدلها الحالي البالغ ١٠٪ من مجموع المساعدة الحكومية للتنمية ، الى ٢٠٪ عام ١٩٧٥ على أقل تقدير . وهذا يعني أن هذه الحصة سوف تزيد خمسة أضعاف عن معدلها الحالي ان اخذنا بعين الاعتبار التزايد المرجو حتى عام ١٩٧٥ المساعدة الحكومية نفسها والتي ينتظر ان تبلغ معدل ٠،٧٠٪ من مجمل الناتج القومي للدول الغنية .

أن دور منظمة التنمية الدولية I. D.A. غدا هاماً في ضوء هذه الاهداف ،

خصوصاً بفضل ماليديها من خبرة في تمويل التنمية . ولكم يستحسن أن يتطور دورها في هذا المجال ، لأن وضعها يشجع على أن تمر مقادير أكبر من الرساميل المخصصة للتمويل بواسطتها . وهذا يقضي بزيادة امكانياتها من ٤٠٠ مليون دولار سنوياً كما هي عليه الآن الى ١،٥ مليار دولار عام ١٩٧٥ ، كما انه من الضروري اتخاذ تدابير ترمي الى ايجاد مورد مستمر لتمويل فوائد بعض القروض التي عينها البنك الدولي .

وثمة امنية يبديها واضعو التقرير . فهم يتمنون لو يقوم مدير البنك الدولي بالدعوة الى مؤتمر تدرس فيه فرص ايجاد آليات ضرورية تقوي من فعالية نظام المساعدة الدولي ويشترك فيه رؤساء الأجهزة المتخصصة في الامم المتحدة وفي المؤسسات الأخرى الجاعية مع ممثلي الدول التي تقدم مساعدات ثنائية وممثلي الدول النامية .

ان الهدف الذي يوجه كل هذه النتائج والتوصيات هو تأسيس علاقات مستمرة وبناءة بين الدول النامية والدول المتقدمة في مجتمع عالمي جديد ومترابط ، بحيث تستطيع المساعدة الدولية للتنمية الموضوعة بشكل مناسب والتي تمارس بحكمة ، المساهمة بقدر كبير في تحقيقه .

* * *

بعض الملاحظات السريعة

الآن وقد انتهينا من عرض وتلخيص التقرير موضوع المقال هذا ، سوف نحاول تسجيل بعض الملاحظات السريعة حوله . ولن يثنينا عن ذلك اعترافنا بما يملك واضعوه من خبرة عالية مشهودة في مجال التنمية . فالتقرير أتى بالفعـــل جامعاً لمشكلات التنمية وللطرق المقترحة لتحقيقها ، بأسرع وقت ممكن . وهو بشكل بالتالي ، انطلاقاً من هذه الفكرة ، مرجعاً نظرياً واحصائياً على درجة كبيرة من الأهمية يضاف بحق الى مجموعة المصادر التي تبحث في التنمية **بمعزل عن أهمية الايديولوجية في تحقيقها ، وفي ظل ما وضعه العالم الرأسمالي من نظم للمبادلات الدولية .**

إلا اننا في الوقت نفسه على درجة كبيرة من الاقتناع ، بأن واضعيه بحكم تكليف منظمة دولية لهم بهذا العمل ، كانوا أسرى ماتقتضيه بحوث المنظمات الدولية من ديبلوماسية في التعبير ، تحرم على اصحابها تسمية الأمور بأسمائهـــا الحقيقية ، فتجعلهم يذكرون مايجب ذكره بصراحة وقسوة في بعض الأحيان، بالاسلوب إياه الذين يتحدثون به عن مشاكل أقل أهمية .

وبما أن الحظ لم يسعفنا بعد ، ولاالتجربة في اتباع هـــذا الاسلوب ، فسوف نعمل في السطور القليلة التالية على تجريد أفكار التقرير الرئيسيـــة من الوقار الجم الذي يكبلها .

١ — نود ، باديء ذي بدء ، أن نوضح للقاريء ماقد توحيه كلمة «مساعدة» التي تكررت كثيراً في الصفحات السابقة ، من معان .

إن المساعدة ليست هبة بدون مقابل كما قد يخطر للبال، ويعتبر «مساعدة» قبول بلد ما بتقديم قرض، قصير الأمد أو طويله، بفائدة منخفضة أو مرتفعة، بشروط معينة الى بلد آخر.

٢ – يخال للقارىء ان الدول الغنية حين تقبل بتقديم قرض ما، تقوم بعمل خيِّر وانساني تجاه الدول النامية. ويتجاهل التقرير تجاهلاً يكاد يكون كاملاً **دور الدول الغنية في تخلف الدول الفقيرة من جهة، والدور الذي تلعبه المساعدة في تقوية اقتصاد الدول الغنية نفسها، من جهة أخرى.**

آ – لقد ثبت علمياً الآن أن احد الاسباب الهامة في تخلف الدول الفقيرة هو استغلال الدول الغنية لها، فأراضيها غالباً ما كانت، ولا تزال حتى الآن ولو بنسبة أدنى، منابع لمواد أولية يحتاج اليها العالم الغني، ويشكل سكانها قدرة استهلاكية كبيرة لتصريف منتجات هذا العالم. ويحق لنا أن نتساءل – ولو بشكل نظري بحت ومع أن السؤال يحتمل طرح عكسه – عما تصبح عليه اقتصاديات كثير من الدول المتقدمة ان أغلقت في وجهها أسواق العالم الثالث.

ولا نعتقد ببراءة الدول الغنية، اقتناعاً منا بأنها هي التي اوجدت النظام الرأسمالي الحالي في المبادلات الدولية، من قضية تدهور اسعار المواد الاولية التي ينتجها العالم الثالث والتي تشكل مقداراً كبيراً من ثروته.

في الوقت نفسه تلعب الدول الغنية ذاتها دوراً كبيراً في الحد من تزايد استهلاكها لبضائع العالم الثالث بسبب ما تفرضه عليها من رسوم وضرائب مرتفعة. ولنا في هذا المجال مثال البترول. صحيح انه ليس نموذجياً ولكنه يقدم مؤشرات تؤكد هذا القول. ولنا في الجدول التالي ما يوضح تركيب السعر النهائي للمنتجات

البترولية (بمجملها) كما يدفعه المستهلك في البلاد الصناعية[1] .

كلفة الانتاج	٢,٧	٪ من السعر النهائي
رسوم في بلد الانتاج	٧,٩	٪ من السعر النهائي
نقل	٦,٣	٪ من السعر النهائي
تصفية	٣,٣	٪ من السعر النهائي
توزيع	٢٦,-	٪ من السعر النهائي
الربح الصافي للشركات (٢)	٦,٣	٪ من السعر النهائي
رسوم في بلد الاستهلاك	٤٧,٥	٪ من السعر النهائي

ان مؤشرات هذا المثال ، رغم التحفظ الذي أبديناه حوله ، تدل على ماتشكله الضرائب والرسوم التي تفرضها الدولة الغنية من نسبة كبيرة في السعر النهائي لصادرات دول العالم الثالث ، وحبذا لو حسب واضعوا التقرير مقدارها وقارنوه بحجم كل ماتقدمه هذه الدول من مساعدة للعالم الثالث . ان التقرير يلمح الى موضوع ثقل هذه الضرائب والرسوم ويكتفي من هذا الموضوع بالاعتراف بأن « السياسة التجارية للدول المتقدمة تضع عقبات كثيرة في وجه تزايد حصيلة تصدير الدول التي هي دونها من حيث التقدم الاقتصادي » .

ب — في الوقت نفسه تلعب المساعدة في نظرنا دوراً هاماً في تقوية اقتصاد الدول التي تقدمها .

فهي في أغلب الحالات تمول مشتريات من الدول التي تقدمها والدور الذي تلعبه هذه المشتريات في توازن الميزان التجاري للدول الصناعية ، له أهمية بالغة ، خصوصاً ان أخذنا بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه قدرة بضائع هذه الدول على

---

(١) جريدة الموند باريس — عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩٧١ .

(٢) مع الملاحظة بأن غالبية الشركات المنتجة مرتبطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالشركات التي تقوم بالتوزيع عالمياً .

المنافسة في قوتها الاقتصادية نفسها ، ولكم توجد أمثلة على ذلك . وما عمليات التخفيض النقدي التي مارستها هذه الدول إلا محاولة منها ، مضافة الى عوامل هامة أخرى ، للتقوية من قدرة بضائعها على المنافسة في السوق الدولية . وندعم رأينا هذا بما ذكر في التقرير نفسه من مغالاة بعض الدول في تقديم اعانات التصدير .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية نعتقد بأن المساعدة نفسها تلعب دوراً هاماً في تحقيق نوع من التوازن النقدي والاقتصادي في البلد الذي يقدمها ، فالفائض الذي يحققه ميزان المدفوعات في بلد متقدم ، ان لم تحدد استعمالاته في أوجه معينة قد يؤثر على التوازن النقدي والاقتصادي في هذا البلد ويجره إلى أحد أشكال التضخم . فهذا الفائض(1) يشكل دخول رساميل ، أي مداخيل جديدة هي بحد ذاتها قدرات شرائية جديدة قد تسبب ارتفاعاً في الأسعار . وقد تدخل هـــذه الرساميل بشكل ذهب أو عملات قوية تدفع البلد الى اصدار كميات جديدة من النقد الوطني ، إلا أن الدول المتقدمة ، تحسباً منها لما قد تحدثه هذه الرساميل ، تعمد الى التصرف بها بطرائق شتى ، أهمها ، منح قروض خارجية .

ج – بناء على ماتقدم نرى أن الوضع الحالي للتبادل الدولي هو الذي جعل من حاجة العالم الثالث الى الرساميل الخارجية حاجة ماسة ، علماً بأن هذه لاتشكل إلا ١٥٪ فقط من الاستثمارات المحققة في هذا العالم . وكنا نتمنى لو وجدنا في التقرير دعوة صريحة إلى الدول المتقدمة باتباع سياسة أقل مصلحية مـــع الدول النامية . ولا نجد في التقرير إلا تلميحات عابرة منها مايعترف بما تجره المساعدة على الدول المتقدمة من مكاسب على المدى الطويل ، ومنها مايوصي بضرورة تحسين

(1) Emile James, Problémes Monétaires d'aujourd' d'hui Sirey - Paris - 1963 - p. 162

شروط التبادل بين هذه الدول وبين الدول النامية . كل هذا في الوقت الذي وصل فيه بعض المؤلفين المعاصرين الى تسمية السياسة التي تتبعها الدول الرأسمالية تجاه العالم الثالث بعملية « نهب العالم الثالث » (١) .

لذلك نجد أن ماورد في التقرير من اشارة الى الأساس الأخلاقي للمساعدة لامحل له على الاطلاق ، اللهم ان قصد واضعوه بذلك ايقاظ الدوافع الأخلاقية في الدول المتقدمة كيما تعمل على ممارسة سياسة أقل مصلحية تجاه العالم الثالث .

وان كان الأمر غير ذلك ، فذكر هذا الأساس لايعتبر عقلانياً ، فالمدن الفاضلة تبقى في أذهان واضعي أسسها ، والعالم الفاضل ينبض بالحياة انما في طيات الكتب . والمساعدة جزء من سياسة عامة لاتسيّرها الأخلاق بقدر ماتسيّرها مصلحة الدول التي تقدمها . والتزام الفرد يختلف عن التزام النظام ، والتوحيد بين التزام الفرد تجاه البؤس في بلده وبين التزام المجموعة (النظام) تجاه البؤس في العالم مبالغ فيه . كنا نتمنى لو تحدث التقرير عن مسؤولية الفرد تجاه البؤس كنتيجة لمساهمته الواعية أو اللاواعية ، المباشرة أو غير المباشرة ، في بؤس الآخرين . وعن مسؤولية المجموعة (النظام) تجاه البؤس في العالم كنتيجة لمساهمتها في ذلك .

ان مجموعة أفراد بائسين في دولة شيء ، ومجموعة دول بائسة في العالم شيء آخر . وقدرة الفئة الأولى على القيام بالثورة في بلدها هي غير قدرة الفئة الثانية على القيام بثورة في العالم .

---

(١) ـ بيير جاله – نهب العالم الثالث Le Pillage du Tiers Monde ترجمة ومراجعة الدكتور يوسف شقرا والاستاذ أديب اللجمي – وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٨ .

٤ – ان مسحاً شاملاً لما يكبل، غالباً، المساعدة من شروط ويوجهها من غايات يرينا أين تكمن المشكلة الأساسية. ويذكر التقرير ذلك من حين لآخر.

« ان المساعدة غالباً ما كانت تقدم بهدف الحصول على مكاسب سياسية على المدى القصير، كتأمين مراكز استراتيجية أو بغاية تشجيع صادرات الدول التي تقدمها » ويتابع التقرير، « فالمساعدة الخارجية الهامة التي قدمت في الخمسينيات لم تكن بغاية المساهمة في النمو الاقتصادي للدول التي تلقتها بقدر ما كانت بغاية تمكين هذه الدول من الاحتفاظ بقوى مسلحة كبيرة. »

إلا أنه حين يتحدث عن مشاكل تزايد الديون وعن تكاليف الدين يوجز ويترك القارىء في ظمأ شديد.

* * *

ان العالم الثالث يعاني اليوم من تدهور أسعار المواد الاولية ومن تناقص تزايد استهلاكها. وهو في حاجة ماسة اليوم الى قروض طويلة الامد بفائدة معقولة وبشروط معقولة. وقد جاء التقرير يلح على ذلك ويقدم التوصيات تلو التوصيات في هذا الصدد. وقد رجعنا في ملاحظاتنا الى الدلالة على القدر الذي ساهم به النظام العالمي للتبادل، الذي أوجدته الدول الرأسمالية، في بؤس العالم الثالث، وبالتالي في حاجة هذا العالم الى هذه القروض.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى وجدنا أن التركيز على أهمية الدور الذي تلعبه المساعدة الدولية في تنمية العالم الثالث – وهي بالفعل تلعب دوراً هاماً واستمرارها ضروري بالشروط التي ذكرناها – قد يوحي بأن هذا العالم يطالب ولا يقدم أي شيء. وهذا هو الخطأ بعينه، وهنا يكمن الطرح الخاطىء للمشكلة. لذلك، وختاماً لبحثنا هذا، وسوف نكتفي بعرض الارقام التالية التي تدل على ما تجنيه الولايات المتحدة الامريكية وحدها، ركيزة العالم الرأسمالي من فوائد جمة من العالم الثالث. والارقام تتعلق فقط بمادة واحدة هي « المادة السنجابية » (Matière Grise)، دون ذكر مئات السلع الاخرى التي ينطبق عليها ذات التحليل.

فقد دلت الاحصائيات (١) على ان الولايات المتحدة الاميركية قد جذبت لحوها في فترة ١٩٤٩ / ١٩٦١ فقط حوالي ٤٣٠٠٠ مهندس و ١١٠٠٠ طبيب ينتمي ٩٠٪ منهم الى بلدان العالم النامي .

وفي حديث منسوب الى وزير العمل الفرنسي نجد ان ما قدمه العالم الى الولايات المتحدة الامريكية من رأسمال بشري يقدر بمئة الف عالم وفني . وان اخذنا بتقديرات الامم المتحدة ، نجد ان كلفة تهيئة الفني الواحد تصل الى ٢٠ الف دولار وبالتالي فان ماجنته الولايات المتحدة الامريكية وحدها من العالم يفوق بقيمته كل ما قدمته للعالم من مساعدات اقتصادية ومالية .

ان هذا الاغفال لكل مايقدمه العالم الثالث الى العالم الصناعي الرأسمالي لايُقبل به . لقد تحدث التقرير عن حجم المساعدات التي قدمتها الدول المتقدمة الى الدول النامية والتي بلغت ١٢،٨مليار دولار عام١٩٦٨. وكم كنا نتمنى لو حاولت اللجنة التي وضعته تقدير الرساميل التي تغادر العالم الثالث الى العالم الصناعي وقارنت حجمها بحجم هذه المساعدات .

ان ذلك ماهو الا نتيجة لمنطلقات غير مقبولة . فهل نستطيع القبول مع التقرير بأن « العدل في أن يتقاسم الاغنياء مع الفقراء »؟ أم أن العدل هو في أن توزع الثروات على القوى التي تشارك بالفعل في انتاجها ؟

---

(١) هذه الارقام وردت في دراسة تضمنتها نشرة غرفة صناعة دمشق — العدد ٣ — ١٩٧٠

الفوضوية

نشأتها - أعلامها - مبادؤها

حنا عبود

الفوضوية هي تمرد الفكر البرجوازي الصغير على القوانين والنظم الرأسمالية التي سحقت كل فضيلة ودمرت كل قيمة انسانية ، وهي حلقة من التشويش تمتد من البرجوازية بليبراليتها الى الاشتراكية بنظريتها العلمية وهدفها البناء. لقد هال البرجوازي الصغير هذا الاخطبوط الجبار الذي يمد اذرعته في اي اتجاه ، والذي في مقدوره ان يتناول أي شيء : الفن والاخلاق الى جانب السياسة والاقتصاد ، وينتزع منك ليس اللقمة والرداء ، وانما الشرف والحرية والاخاء وكل ماهو غال عليك محبب اليك . فما كان من هذا البرجوازي الصغير الذي يتصف بالثقافة الى جانب انحداره التدريجي نحو هاوية البؤس والدمار ، الا أن تمرد وثار على الأخطبوط الرأسمالي الرهيب محاولا تدمير كل شيء يمت إليه بصلة ، لايقف في وجهه عائق ولا تثنيه صعوبة . والفوضوي يقف على أطلال

المجتمع الرأسمالي الذي دمرته الثورة حائراً ينظر الى الوراء فيبتهج بما صنعت يداه ، ويتطلع الى الأمام فيقف مشدوهاً لايدري ماذا يصنع . ولأن التدمير هدف ووسيلة ، في الوقت ذاته ، بالنسبة الى الفوضوي ، فهو يدمر ماهو كائن لأن كل ماهو كائن فاسد ومعيق ، ولا ينظر الى ماسيكون مادام انتهى من تدمير الفاسد المعيق وازالته من طريق تقدم الانسان وحريته .

وبما أن الطبقة العاملة ، بطبيعتها ، تكره النظام الرأسمالي ، الذي أهداها البؤس والشقاء والدمار ، فان بعضاً منها أخذ بالدعوة الفوضوية إلى حين . ربما أغراه مافيها من الارهاب والبطش والمغامرة ، فاعتقد أن ذلك يختصر طريق الطبقة العاملة ويدفع بها سريعاً الى هدم النظام الرأسمالي . وقد روج دعاة الفوضوية هذا الاعتقاد عن طريق النشرات والصحافة . يقول احدهم — وهو نيتشاييف — « أي قيمة للكلام إذا لم يعقبه العمل مباشرة . يجب ان نقتحم حياة الشعب بسلسلة من المؤامرات اليائسة المجنونة لتدفعه الى الايمان بطاقته » .

والفوضوية ليست واحدة ، وان اتفقت في كثير من أمورها ومبادئها الرئيسية . ويمكن — اصطلاحاً — أن نميز نوعين من الفوضوية : مذهب الفوضوية الفردية ومذهب الفوضوية الشيوعية . فالأولى تنزع الى إنقاذ « الفرد » من ربقة النظم التي تحدّ من حريته وطاقاته الابداعية ، فهي تهدف الى تحطيم كل ما من شأنه ان يقف في طريق الفرد ، لتفسح المجال للحرية الفردية ان تأخذ مداها . وبذا يبدأ — حسب رأي الفوضويين — عهد من الابداع الرائع يشارك فيه كل « أفراد » المجتمع مشاركة « حرة » . ومن أبرز ممثلي هذا المذهب بيير برودون ، وماكس ستيرنر .

أما برودون (١٨٠٩ — ١٨٦٤) فعرف بكتابه « فلسفة البؤس »

الذي اشتهر بعد أن رد عليه ماركس في كتابه « بؤس الفلسفة » ، حيث انتقد مفاهيم برودون الاقتصادية والفلسفية وبيّن نوازعـــه البرجوازية . ولبرودون مؤلفات أخرى لا تقل أهمية عن كتابه السابق أهمها كتاب « ماهي الملكية ؟ » حيث برهن فيه أن الملكية لاتعدو ان تكون سرقة محضة [1] . فيطالب بتدمير كل مظهر من مظاهر الملكية الرأسماليـــة [2] . وكتابه « عدالة الثورة وعدالة الكنيسة » يسلط على الأنظمة الكنسية نقداً مريراً ويفضح أساليبها .

أما ماكس شتيرنر (١٨٠٦ – ١٨٥٦) فيكاد يكون الوحيد من بين الفوضويين ممن دعوا دعوة فردية محضة . إن صرخته « فليسقط الملوك ولتسقط القوانين » هي صرخة البرجوازية الصغيرة المنسحقة تحت وطأة القوانين الرأسمالية العاتية . وما كتابه « الفرد وملكيته » إلا دفاع عن الشخصية المتألمة ، الضائعة ، المعذبة فهو يبغي في هذا الكتاب ان يعيد للفرد كل تلك المكاسب السابقة التي انتزعت منه : قسم انتزعته الدولة وقسم انتزعه المجتمـــع . اما الدولة فمؤسسة تعرقل حركة « الأنا » ، لذا يجب ان تخضع الدولة لقدرة « الأنا » . اما المجتمع فيلاحق الفرد دائماً بالواجبات الاجتماعية . والحق ان هذه الواجبات – كما يدعي شتيرنر – يجب ان يقدمها المجتمع خدمة للفرد . وليس العكس ابـــداً . فعلى المجتمع ان يسد حاجات الافراد ليتحول الى « مشاركة عادلة » تظهر فيها طاقة الفرد الكاملة ، وبذا يكف المجتمع عن أن « يستهلك » الفرد » حسب تعبير شتيرنر . وكان شتيرنر هذا من جملة الهيجليين اليساريـــين يواظب على الحضور الى نادي

---

(١) راجع كتاب « الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر » من ترجمتنا .

(٢) للوقوف على رأي برودون في الملكية بشكل بيّن راجـــع « المؤلفات المختارة » ترجمة الدكتور شخاشيرو .

« الأحرار » ويلتقي فيه بالأخوة بوير وبوهل و كوبن . كما تعرف على فريدريك انجاز حين كان يمضي مدة خدمته العسكرية . وقد كشف انجاز شتيرنر على حقيقته فوصفه انه يشرب الآن الجعة ، وبعدها سوف يشرب الدماء و كأنها ماء، مشيراً الى الروح الفوضوية الكامنة فيه . وصفي حساب فلسفته في كتاب « الأيديولوجية الالمانية » .

اما المذهب الثاني للفوضوية فهو الفوضوية الشيوعية ، وليس لكلمة الشيوعية هنا أية رابطة تربطها بالنظرية العلمية . وإنما وضعت تمييزاً لهذا المذهب عن المذهب الأول وهو « الفوضوية الفردية » ، ونظراً للخلاف بين المذهبين حول دور الفرد وقضية الملكية. ومن أهم ممثلي هذا التيار با كونين وتلميذه كروبتكين.

ينحدر ميشيل با كونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) من أسرة روسية أرستقراطية تعد من أصحاب الأراضي الكبار. دخل « مدرسة المدفعية » ، ولكنه سرعان ما أقصي عنها لشدة شغبه وعدم انضباطه . ثم مالبث ان ادعى المرض فأعفي من الجيش ، وعاش حياة كلها اضطراب وفوضى واعتقال ونفي وسجن وجوع ومرض . وعندما سجن في روسيا كتب رسالة الى القيصر عرفت فيما بعد بعنوان « اعترافات با كونين » . وفيها يتنصل من ماضيه كسيامي ثوري ، ويتعهد للقيصر بالعمل في خدمة الشعوب السلافية «التي يقع على عاتقها عبء تحرير الشعوب». وكانت هذه الاعترافات وصمة لحقت بيا كونين ، على انها لم تؤد الى اخلاء سبيله وإنما خففت عنه أعباء السجن ليس اكثر . وفرّ بعدها الى اليابان فالولايات المتحدة ثم عاد الى اوربا وقام بعدة محاولات انقلابية في ايطاليا وفرنسا وغيرهما إلا انها جميعاً منيت بالفشل وأدت الى مطاردته وملاحقته من قبل السلطات .

وحياة باكونين خير مرآة لمبادئه . يؤلف الجمعيات ويكون اول المطرودين منها لكثرة شغبه وحبه للسيطرة والتحكم وعدم تقيده حتى بالدساتير التي كان يضعها بنفسه . يؤلف في موضوع ثم يمل منه فيتركه ليبدأ بموضوع آخر . و كثيراً مايترك الكتاب ولم ينه منه الا بضعة فصول . لايستقر في مكان ولا يطمئن الى حركة . يبذر بلا رصيد ويستدين دون تسديد . حينما ينزل تنزل الفوضى ويدب الاضطراب . طويل القامه ، عظيم الهامة ، قوي الجسد ، متين البنية ، كان في داخله قوة محبوسة من قوى الطبيعة الهائلة . كان ضجراً بالآخرين لايريد سماع آرائهم لثقته بنفسه . ترأس لجنة الثورة في ليون عندما اندلعت نيران تمرد فيها في الثامن والعشرين من ايلول ١٨٧٠ فحكمها بشدة وقسوة أين منها شدة الدولة التي ينادي بتدميرها . لكن سلطته هذه لم تدم اكثر من اربع وعشرين ساعة ، ففي مساء ذلك اليوم يعتقل ويتمكن من الفرار بسبب الاضطراب الذي كان سائداً . دخل الأممية فأدخل معه الاضطراب والتشويش ، تعرف بماركس فدب الخلاف بينهما فوراً وطرد من الأممية في ١٨٧٢ . وظلت المؤسسات الفوضوية بعد وفاته ردحاً طويلاً من الزمن ، وبخاصة في اسبانيا وايطاليا وسويسرا ، ثم ما لبثت ان ذابت دون ان يثير ذوبانها ضجة كالتي اثارها نهوضها .

كتب باكونين العديد من الكتب أهمها « الله والدولة » وفيـــه يعلن إلحاده بالدين و كفره بالدولة ، و « الرجعية في ألمانيا » وهي نشرة أثارت سخط الحكام ، و « الامبراطورية الالمانيـة الاستعمارية والثورة الاجتماعية » وفي هـذا الكتاب يقف الى جانب الشعب الفرنـسي ضد الاستعمار الألماني . ويبقى كتابه « الله والدولة » أشهر كتبه « فقـد ملأه بالعبـارات الثورية التي أخذت بألباب الشباب وجعلت موجة من الارهاب تنتشر في كثير من الأصقـــاع . ووصل

الارهـاب الفوضوي ذروتـه بعـد انصرام خمسة عشر عاماً على وفاة باكونين فاغتيل سادي كارنو رئيس جمهورية فرنسا ١٨٩٤ واليزابيث امبراطورة النمسا ١٨٩٨ . وظهرت في برشلونة عصابة فوضوية روعت الناس تحت اسم « الكف الأسود » ويعتقد أن رئيس مجلس الوزراء الاسباني قد لقي مصرعه على يديها . وفي ٢٠ تموز ١٩٠٠ اغتيل ألبرتو ملك ايطاليـــا . ولم تكن الولايات المتحدة الاميركيـة في مأمن من حركات الفوضويين ، فقد شرفها الفوضوي الألماني « جوهان موست » بزيارة انتشرت على اثرها موجـة من الارهاب شملت أغلب الولايات . ولم تستطع السجون وعقوبات الاعدام ان تحد بادىء الامر من هذه الحركة . فقد اغتيل رئيس الجمهورية في ١٩٠١ . وأعجب ما الامر أن هـــذه الموجات الارهابية العاتية والانتقامية ، كان يرافقها في أغلب الأحيان موجات تأييد واسعة من بعض الأدباء ، وان لم نقل أغلبهم ، وأحياناً يدعو هؤلاء الادباء الى اكتتاب لاغاثة أسرة هذا الفوضوي أو ذاك بعد أن يعدم أو يزج في السجن . وتفسير هذه الموجة من التأييد يكمن في سياسة الحكومات وفساد نظمها ؛ فلم يكن رجل الدولة يتورع عن أي عمل يجني من ورائه نفعاً ، بينما العمال محرومون والمثقفون مهملون .

إن الارهاب ، في نهاية التحليل ، لن يكون اكثر من نزق البرجوازي الصغير المثقف وقد رأى الشعارات التي ناضل من أجلها تدنس وتكنس . ورأى نفسه مبعداً عن المكان الذي أعد له نفسه فثارت ثائرته ، وانطلق يدمر على غير هدى . وسيان أكان التدمير فكرياً أم عملياً .

وفي عرضنا التالي لمبادىء الفوضوية سوف نقتصر على آراء باكونين دون غيره من أعـــلام الفوضوية الآخرين ؛ لأن الرجل ، في نظر جميع الدارسين للفوضوية ، يعتبر الزعيم الفكري والمعلم النظري لهذه الحركة .

١ - الديالكتيك :

اطلع كل من ماركس وباكونين على الديالكتيك الهيجلي أما ماركس فقد طرح منه روحه المثالية ووجهه نحو الواقـع الملموس والمعطى المنظور مبتعداً به عن متاهات الغيبيات ودراسة القضايا غير الانسانية (مثل تحقيق الذات - الفكر المطلق - الارادة - صراع الروح . . . . إلخ) أي أعاده - حسب تعبير ماركس - إلى وضعه الطبيعي بعد أن كان معكوساً . أما باكونين فلم يأخذ من الديكالتيك إلا نصفه . فالديالكتيك قوة دراسة التنازع (الاطروحة والطباق) والتآلف (التركيب) أي « دراسة التناقض في قلب الواحد » . فأخذ باكونين الشق الاول منه فقط أي التنـــازع وشرع يبني نظريته ، فلم يخرج إلا بنتيجة واحدة وهي كل شيء أطروحة ونحن طباقها » . الله والدولة والمجتمع . . . . هذه هي الأطروحة وعلينا نحن تدميرها . ولو سئل : وماذا بعد ذلك ؟ لأجاب باندفاع وتساؤل : وماذا أكثر من ذلك ؟ ألم ينته كل شيء فاسد ؟ . . .

إن الطريقة التي استخدمها باكونين لم تسعفه مطلقاً في الوصول الى حل المسائل التي وضعها هو نفسه . إن استخدام الديالكتيك بشكل مشوه ، سيؤدي إلى فلسفة مشوهة مضطربة . فهو لا يعتقد بوجوب اعادة الدولة بعـد تدميرها مهما كانت الأسس الجديدة التي ستبنى عليها . ولا يرى جدوى من إقامة أي شيء فكل سالف مدنس .

٢ - الثورة :

الثورة هي طريق الخلاص أمام البروليتاريا ، هي ذروة الصـراع الذي يدور بين الطبقات . إنها شكل خاص ، او بالأحرى ، أعنف أشكال الصراع

الطبقي . والثورة ليست رغبة فرد، وإنما إرادة طبقة . ولحدوثها لا بد من توافر عدة ظروف منها : ١ - عجز الطبقة الحاكمة عن الحكم ٢ - طبقة محكومة لم يعد في مقدورها الاستمرار في ظل هذه الظروف ٣ - وجود حزب قائد منظم للطبقة المحكومة ٣ - توفر الارادة الثورية لدى الطبقة المحكومة . وهذه الارادة تخلقها الظروف الثورية من جهة ويؤججها الحزب الثوري من جهة ثانية . وأي وهن في الارادة الثورية هو دلالة على أن الحزب لم يستغل الظروف ويوجهها لخلق هذه الارادة والتي هي عنصر ضروري وهام في كل مراحل الثورة .

أما باكونين فيرى في الثورة تمرداً غريزياً ، ولا حاجة الى الانتظار ريثما تتوفر بعض الظروف ، فما دامت الثورة هي الحل فلتندلع نارها وليتأجج أوارها وكلما أشعلت ثورة ، أوقعت الرعب في قلوب الحكام الذين ترتعد فرائصهم لدى سماع أنبائها . . . « ألا فلتشتعل الثورات في كل مكان لجلب الدفء للعراة والخبز للجياع ، ولتكن منارة للمشردين وأتوناً للظالمين » . فالثورة عمل غير مخطط ومغامرة غير مدروسة عند باكونين واغلب الفوضويين . ومن هنا نتبين مدى خطر الفوضوية وأي طريق ترسم للطبقة العاملة . فكأن الفوضوية تشعل الثورة وتقول لها بلسان صديق يوليوس قيصر : سيري فلن يعرف أحد أين تستقرين . إن الثورة في نظر باكونين أقرب الى التمرد والتدمير اكثر منها عملاً مدروساً منظماً ، لذلك لم تستطع الفوضوية ، طوال تاريخها ، أن تقوم بثورة منظمة لها طريقها وأمامها أهدافها ،وإنما اكتفت بتصدير العبارات الثورية وتجميع الجماهير كيفما اتفق وتحريضهم على العمل السريع . . . والفاشل أيضاً . إن هذه الدعوة هي في الحقيقة - وكما أظهر الواقع - دعوة الى الارهاب .

٣ ـ الدولة :

ترى الفوضوية أن ثمة ثلاثة عوائق تقف في وجه حرية الانسان : الله والدولة والقوانين الاجتماعية . وقد خص باكونين الله والدولة بكتاب خاص مهره باسميهما (الله والدولة) هاجم فيه الفكرتين . واعتبر الدولة حارسة للفكرة الاولى ، ومدافعة عنها ، تستخدمها في سبيل مصلحتها المادية من جهة وتضليل البسطاء من جهة ثانية لصرفهم عن التفكير فيها والعمل على تقويضها . وما دامت الدولة تستخدم الدين فهو مرتبط بها . والنضال الذي يجري ضدها يجب ألا ينفصل عن النضال ضد الدين ، فيجب العمل على تدمير الدولة والدين معاً ، فلا يبقى عائق غير القوانين الاجتماعية . وهذه يجب تغييرها واستبدالها بغيرها . فكيف تدمر الدولة ـ في رأي باكونين ـ وكيف يجري استبدال القوانين ؟

إن كل وسيلة من شأنها التأثير في كيان الدولة يجب استخدامها ، ما دامت تحقق الهدف الذي تسعى اليه الفوضوية ربما كان عن طريق الثورة ، وربما عن طريق الارهاب أو عن طريق الاضراب أو الصحافة . . . . إن كل ما يؤثر في جهاز الدولة له وجه شرعي لدى الفوضوية . فلا عجب إذا حظي الارهاب بتأييد أغلب مفكري الفوضوية وبخاصة باكونين . وبعد أن يرحل هذا الكابوس (الدولة) عن صدر المواطن يجب أن يرحل معه الدين وكل ما يمت الى الدولة بصلة . وباكونين ـ كعادته ـ قد ينادي بشيء ويفعل خلافه . فقد ترأس لجنة ثورية في ليون وحكمها بأشد من الدولة ، وطالب بفرض نظام على الأممية الأولى أشد صرامة من نظم الدولة ، فانفجر الصراع بين الخطين : الماركسي والفوضوي . والمعروف أن الماركسية تعمل على تدمير الدولة

بشكلها البرجوازي ولكنها تجعل بديلا عنها دولة ديكتاتورية البروليتاريا ، التي لن تزول إلا بزوال الطبقات ، أي بعد مرور فترة ، قد تطول وقد تقصر حسب ظروف البلد ، هي فترة الاشتراكية ، حيث تفرض البروليتاريا نظام حكمها وتعمل على افناء نفسها ، وذلك عن طريق الانتقال بالمجتمع من مجتمع طبقي الى مجتمع لا يعرف الطبقات فتزول الفروق بين العمل الفكري واليدوي والصناعي والزراعي ويغدو العمل متعة ومسرة .

ان باكونين لا يعترف بمرحلة ديكتاتورية البروليتاريا البتة . ويرى فيها قيداً جديداً للطبقة العاملة . فما دامت ديكتاتورية البروليتاريا دولة ، فيجب القضاء عليها ، لأنها ستغدو من جديد مرهقة للانسان ، لا يلبث أن يتمرد عليها .

على أن باكونين يعود فيعترف بأن المجتمع لن يترك سائباً هكذا ، وانما يستعاض عن الدولة باتحادات فدرالية على أساس الكوميونات الشعبية الحرة . وهنا تتعقد الأمور بالنسبة الى باكونين فلا يرى كيف تعمل هـــذه الاتحادات الفدرالية ، وكيف يعمد الى تسيير القطارات وتأمـــين الخدمات العامة ... الخ فأحياناً ينادي بتنظيم مبني على أساس الكوميون ثم يدخل الكوميون مع الكوميونات الأخرى ، في اتحادات فدرالية ، وأحياناً يقول ان المجتمع سينظم نفسه بطريقة قد يتعذر الحديث عنها ، وهكذا يختلط الوهم بالواقع والتخمين باليقين .

إن أخطر ما في الفوضوية نظريتها في الدولة ، لأن هـــذا التنظيم الذي يتوهمه باكونين ، بعد زوال الدولة مباشرة ، سيدفع بالادارة الى ايـد قوية ، ليست سوى أيدي الطبقات العادية التي لم تتوفر لها دولة تبترها .. فيعيد التاريخ نفسه ويرجع الصراع الطبقي الى المجتمع من جديد ان الاكتفاء بازالة الدولة

لا يقل خطراً عن المحافظة عليها او مساعدتها في حكمها بتركيبها القائم . وكل محاولة لالغاء الدولة والابقاء على الطبقات ستؤدي الى عودة الصراع الطبقي وعودة الكابوس الثقيل (الدولة البرجوازية) التي لن تزول الا بديكتاتورية البروليتاريا وتظل الدولة مهددة – رغم ديكتاتورية البروليتاريا بعودة الرأسمالية الى المجتمع مالم تستأصل شأفة الطبقات « التي تقدمت امتيازاتها ، والتي تزداد شراسة كلما ازدادت ضعفاً .

إن القوانين الموضوعية لاترحم ، لذا لم تجد الفوضويه من هذه القوانين شفقة ولا رحمـــة فغابت مع ما غاب قبلها من النظريات التي لم تأخذ الواقع بعين الحسبان .

٤ – الحرية : الحرية هي الوسيلة التي يجب استخدامها للتخلص من ربقة القوانين الاجتماعية . فاذا ما استطاع الانسان تدمير هذه القوانين و « المثل » الاجتماعية ، بات في مقدوره أن يتصرف بحرية ضمن نطاق « الفاعلية الانسان » . فليس ثمة أفراد أحرار ، وإنما أفراد « تربطهم الحرية » بمعنى أن نشـــاطهم الانساني ينطلق حراً من كل قيد ، فلا دولة تحد منه ، ولا مجتمع يعيقه . وكان باكونين ، فوق هذا ، ، يتصور بل يتوقع ويؤكـد « بزوغ فجر من الحرية لم يشهد له التاريخ مثيلاً » ، وتصورات باكونين للمجتمع الحر أشبه بالرؤى والأحلام . فهو لم يربط ربطاً علمياً بين الحرية والضرورة كما فعلت الماركسية ، والتي انطلقت تهاجمه في هذه الصيغة . ولنفرض أننا أزلنا كل العوائق التي تحد من حرية الانسان – وهي في رأي باكونين الله والدولة والمجتمع (أي القوانين الاجتماعيه) – فماذا يبقى لدينا ؟ هل نحصل على انسان « حر » تخلص من كل الضرورات ؟ إن مثل هذا الانسان – كما تقول الماركسية – لايمكن الحصول عليه « لأن الحرية مواجهة للضرورة وعمل بمقتضاها وليست هروباً منها » .

إن رفع هذا الشعار عالياً من قبل الفوضوية ، في مجتمعات ديست فيها الحريات ، جعل لهـا جمهوراً من المثقفين ، ونفراً لا يستهان به من الكتاب ، مثل اناتول فرانس وميشيل زيفاكو وغيرهما ، جعلوا من اوراقهم منابر دفاع عن الفوضوية ، وجعلوا أقلامهم أصابع اتهام ضد الحكام لفترة طويلة ، ولكنهم سرعان ما انفضوا عنها بعد أن سمعوا بموجاتها الارهابية ، التي اخذت المحسن بالمسيء .

٥ - النزعة الارهابية . إن رد الفوضوية على الماركسية كان عملياً جداً فقد لجأت الى الارهاب الذي كان متوقعاً لنظرية هـذا اتجاهها . ولا يفصل الفوضويون - وخصوصاً باكونين بعد أن قابله نيتشاييف الطالب الروسي [١] ١٨٦٩ - بين الثورة والارهاب . وإذا كان الارهاب قد سار شوطاً بعيداً ، لم يكن باكونين يتوقعه ، فإن ذلك لا يعفيه من مسؤولية الارهـاب . فعندما اعتقل نيتشاييف وجدت معه مخطوطة « انجيل الثورة » وقد ثبت بالتأكيد أن كاتبها هو باكونين نفسه . وقد رأينا من قبل كيف انتشرت موجات الارهاب في روسيا وايطاليا وفرنسا واسبانيا واميركا .

كان الارهاب يستهوي افئدة كثير من المثقفين ، أول ظهوره ، ولكنه الآن أصبح يثير الاشمئزاز . والارهاب الذي كان سبباً في انتشار الفوضويين

---

(١) كان متمرداً فوضوياً نظم فرقاً من الطـلاب في موسكو وبطرسبرج . ومارس نشاطاً تآمرياً يعتمد على الارهاب والبطش ، وغدا شغل الحكام الشاغل . وعن طريق منظماته اغتيل بعض رجالات البلاط والدولة كما كان يهدد الطلاب الذين يتعاونون مع افراد الشرطة بالقتل . وفعلا نفذ تهديده بالطالب إيفانوف . توفي نيتشاييف في سجن بطرسبرج عام ١٨٨٢ بعد أن قضى فيه عشرة أعوام .

كان من اكبر الاسباب لانحسارها وانهيارها ، فلم يبق منها الا بقايا في ايطاليا واسبانيا واميركا اللاتينية . ولكن الفوضويين الآن غيروا كثيراً من سلوكهم العملي ، وربما كانت التجارب التي مرت بها بروليتاريا العالم ، هي التي جعلتهم يقيمون برامجهم على منطلقات عملية . فالانهاء الجسدي المحصور بالفرد ليس حلاً ، وربما كانت مساوئه اكثر من حسناته . واذا كان الفوضويون قد خففوا من غلوائهم فانهم لازالوا حتى الآن رمزاً للقوة والعنف والتهور . وربما وصل بهم الأمر إلى حد الطيش وإن لم يكن على الصعيد الفردي .

* * *

إن كثيراً من مواقف الفوضوية يمكن أن تدرس ، مثل موقفها من الانتاج والتعاونيات وتنظيم المجتمع وتفجير امكانات الفرد وطاقاته الخلاقة . . ، . . . الخ ولكن عرض ذلك يستلزم اكثر من كتاب .

على أننا نبخس الفوضوية حقها إذا نسينا أن لها جذوراً معرفية (Epistemolgy) ، فليس كل ماجاءت به الفوضوية خطأ وليس كل ماتفوه به باكونين يجانب الحق . والذي يتمعن في بعض صيغها يجد شيئاً في البناء المعرفي الى جانب وجهتها العملية . ولعل هذه الميزة هي التي تفسر لنا ظهور بعض الكتاب الفوضويين في العصر الحديث مثل هربرت ماركوزي الذي يضع أمله في « الصفوة » أو « النخبة » التي تتألف من الشباب المثقف ، وعلى الأخص ، من جماهير الطلبة . فاذا أضاف اليها حركة الاقليات والملونين امكن أن يتحلل هذا المجتمع « ذو البعد الواحد » . والملاحظ أن هربرت ماركوزي ، بعد كل هذه السنوات التي تصرفت ، يعتمد على الفئات نفسها التي اعتمد عليها باكونين . وقد سبق أن

أن رأينا كيف كانت جماهير الطلبة تشكل الجمعيات الارهابية وتمارس عملها الاندفاعي الأرعن . وكما كان باكونين يدعي الاشتراكية دون أن نعثر في كتبه ، أو في منحاه العملي على مايؤيد دعوته ، كذلك نجد ماركوزي يدعي ، بين الآونة والاخرى ، اعتناقه الاشتراكية مذهباً ، وليس في كتبه أية دلالة تؤكدمايذهب اليه في تصريحاته . كما نجد فكري هيغل وفيخته يغذيان هذين الفوضويين وإن كانت صياغة ماركوزي لشعاب فلسفة هيغل الزلاقة اكثر عصرية . وكما كان باكونين الدعامة النظرية لفئات الطلبة والمثقفين ، كذلك نجد ماركوزي معيناً فكرياً ومنظرا يتهافت على كتبه آلاف بل ملايين الطلبة في اميركا وغيرها من القارات الذين وجدوا فيها تفسيراً للاضطراب الذي يسود عالمهـــم والقلق الذي يساور نفوسهم ، وتصويراً لمستقبلهم الضبابي البائس . وربما كان الاطراء المبالغ فيه للطلبة ، في هذه الكتب ، من الاسباب التي دفعتهم الى ذلك ، فقد جعل منهم وسيلة التغيير ، لأنه لن يخلق الأمل على حد تعبيره — إلا أناس فقدوا كل امل . فمن يملك الأمل لايستطيع خلقه ، أما من كان بلا أمل فسوف يصوغ الأمـــل المنشود ويسعى الى تحقيقه (١).

---

(١) لايمكن في مثل هذه العجالة استعراض ذهنيةماركوزي ، وتقصي أبعـــاده الفكرية . والحق أن ماركوزي خلق شهرة عالمية تفرض قيام دراسات جدية لفكره في بلادنا .

التلفزيون والمسرح

أ.ي. يوروفسكي (١)
ترجمة : عدنان المدانات

التلفزيون والمسرح ـ وسيلتان هامتان يستعملها الفكر البشري المبدع للتعبير عن عالم بكل ما فيه من حركة . وعلى الرغم من أن كل منها يتميز بصفات خاصة ، إلا اننا نلاحظ وجود قرابة وطيدة بينها تؤدي في كثير من الاحيان إلى ان يعتقد البعض بأن التلفزيون مسرح يعرض على الشاشة الصغيرة . وسوف نحدد في هذا البحث أوجه التشابه بين التلفزيون والمسرح والفرق بينها لعل هذا يساعدنا على فهم الصفات الطبيعية الخاصة بكل من المسرح والتلفزيون .

(١) أ ي . يوروفسكي : حائز على شهادة الدكتوراة في علوم التلفزيون . مدرس في قسم الصحافة التلفزيونية في جامعة موسكو . يمارس الكتابة حول نظرية التلفزيون وله في هذا المجال كتب عديدة ، وهو يعتبر من اهم واضعي أسس نظرية التلفزيون في الاتحاد السوفييتي . يمارس في الوقت ذاته التأليف للتلفزيون واعداد البرامج ووضع الخطة العامة السنوية للبرامج في تلفزيون موسكو .

من الواضح ان المسرح والتلفزيون يتلمكان خاصية مشتركة هي الرؤيا . فإن المشاهد يرى الحدث سواء كان امام الشاشة أو امام خشبة المسرح ، بينما هو في الاذاعة يستمع إلى الصوت فقط . ولقد استعارت الشاشة (في البدء شاشة السينما ومن بعدها شاشة التلفزيون) من المسرح الجانب المرئي : الملابس ، المكياج ، الديكور ، الاضواء . واستعارت الشاشة ايضاً من المسرح الرجل المرئي - الممثل واستعارت السيناريو . وثمة خاصية مشتركة بين الشاشة والمسرح ، فهنا وهناك يرى المشاهد امامه فنا تركيبياً . فالمسرح يحتوي على عنصر الرسم (الديكور) ، والادب (التمثيلية) ويحتوي على عنصر التمثيل . ونلاحظ هنا بأن هذا التشابه يبدو من وجهه نظر المشاهد .

ولكن يوجد وجه آخر للمسالة مهم جداً ، ولكنه غير واضح تماماً . ضمن وجهه نظر صانعي النشرة التلفزيونية - المؤلف والمخرج ، توجد كمية من الاوضاع المتشابهة والتي تقرب المسرح من التلفزيون . فإن المادة الاساسية المسرحية تبقى الكلمة ، وبقدر مايتمكن التلفزيون من نقلها إلى المشاهد ، فإن الامكانيات التي يتمتع بها المؤلف المسرحي ، تبقى تحت تصرفه عندما يتحول التأليف التلفزيوني . ان القضية الاساسية التي تقرب المسرح من التلفزيون هي وحدة الزمان والمكان ، حيث نلاحظ ان وقت العرض يساوي الزمن المادي للاحداث . وان وحدة الزمان والمكان لتؤدي إلى تطابق البناء الدرامي ، ذلك الاساس الذي يبنى عليه الحدث المسرحي والتلفزيوني .

ان استحالة اختصار أو تمديد الزمن تؤدي إلى ضرورة استمرار الحدث المسرحي سواء كان على خشبة المسرح او على شاشة التلفزيون . ففي مسرحية د بومارشية » (يوم مجنون) يلقي فيغارو في الفصل الخامس كلمة طويلة جداً .

لم يكتب المؤلف هذه الكلمة فقط من اجل ان يعبر الممثل عن افكار معينة ، فقد كان يمكنه ان يفعل ذلك في وقت آخر ، لكنه فعل ذلك كي يعطي المجال لابطال المسرحية (المركيزة وسوزانا) لكي يتبادلوا الثياب خلف الكواليس كما تطلب الموضوع فلو كان بومارشية قد كتب مسرحيته هذه للسينما او الراديو، لما احتاج لأن يربح الوقت . بينما لو كتب هذه المسرحيه للتلفزيون لفعل نفس الشيء تماماً . والقضية هنا ليست في ان الكاميرا التلفزيونية لاتملك امكانيات الحركة مثل الكاميرا السينمائية ، بل في ان الكاميرا التلفزيونية تنقل الى الشاشة المواد الموجودة امام الكاميرا في نفس الوقت الذي يراها فيه المتفرج على شاشة التلفزيون . ان وحده زمن وقوع الحدث مع زمن عرضه لاتسمح باختصار أو تمديد الحدث كما هو الامر في السينما التي تستطيع ذلك بنجاح عن طريق توليف (مونتاج) الافلام المصوره مسبقاً .

يستطيع المؤلف المسرحي احياناً اختصار وقت الحدث معتمداً على خيال المشاهد الذي يسمح ببعض التنازلات . وان الاسلوب الاسهل لاختصار الزمن على خشبة المسرح هو اغلاق الستائر ثم فتحها من جديد والقول بعد ذلك انه قد مضت ثلاثة ايام ولقد كان هذا الاسلوب هو الوحيد المستعمل في التلفزيون في السنوات الاولى لاكتشافه . غير انه قد اكتشفت وسائل جديده ادت الى التغلب على استمرارية الزمن والمكان في التلفزيون .

بعد ان شرحنا اوجه التشابه بين التلفزيون والمسرح ، سنحاول الآن ان نحدد الفروق بينهما . يتلخص الفرق الاول في ان المتفرج الجالس في قاعة المسرح يرى مشاهد حقيقية ، يرى اناساً موجودين فعلاً امامه . في حين انه يرى على شاشة التلفزيون خيال الممثلين عن طريق تمايز الضوء والظل . ولو بحثنا في

دور الشاهد المسرحي والتلفزيوني وعلاقته بالعمل الفني لوجدنا ان المشاهد المسرحي يؤثر تأثيراً معيناً على سير المسرحية فالجمهور يستطيع ان يجبر الممثل على الخضوع للضحك أو التصفيق ، ويستطيع ان يوقف سير المسرحية ، وأما في التلفزيون فإن الحدث المسرحي محمي من تسلط المشاهد الذي لايملك اكثر من اغلاق آلة العرض عندما لايعجبه العمل ، ولكنه في هذه الحالة يفقد كونه مشاهداً .

وهكذا نلاحظ بأن التلفزيون لايمتلك الصلة العكسية التي يتلكها المسرح ، وهي تأثير الجمهور على الممثل . وهنا علينا ان نحدد الفروق في طبيعة القاعة وظروف العرض ، بين المسرح والتلفزيون . فما هي هذه الفروق ؟

تختلف القاعة في التلفزيون عنها في المسرح كماً و كيفاً . ان زيارة المسرح تضفي على الانسان حالة نفسية تختلف عن الحالة التي يكون عليها في ساعات النهار . عندمايذهب الانسان الى المسرح فانه يجد نفسه في جو آخر غير الذي يعيش فيه ، فما ان يدخل ردهة المسرح حتى يصطدم بجماعات من الناس مرتدية ثياباً انيقة ، ومجتمعة لهدف واحد هو رؤية المسرحية . ان فخامة المقاعد وبريق الاضواء وابهة ثنيات الستائر والرغبة في التمتع بالحدث المسرحي ، كل هذا يختلف كثيراً عن وضعية المشاهد الذي يجلس في بيته وسط افراد عائلته .

ان ظروف العرض تتطلب رؤيا للحدث ذات طابع خاص سنتحدث عنه الآن .

عندمانتكلم عن خواص تقبل المشاهد للأشياء المرئية على شاشة التلفزيون ، يجب ان ننتبه الى الفرق في العدد بين قاعة المسرح وقاعة التلفزيون (اي المشاهدين المجتمعين امام شاشة واحدة) . وهذا عامل مهم يؤدي الى ان تفتقد القاعـــة التلفزيونية « الانفعالات » التي تحدث عندما يؤثر مشاهد على الآخر . ففي المسرح

يستطيع رجلان او ثلاثة اثارة الجمهور كله الموجود في القاعة . بينما نرى ان مشاهد التلفزيون شخص واحد وليس جماعة، وهو يبدو اشبه بقارىء يجلس امام الشاشة وجهاً لوجه .

وكما ان الحقيقة الفيزيائية للمساحة التي يجري عليها الحدث تؤدي الى وحدة التأليف المسرحي والتلفزيوني ، فهناك عامل آخر فيزيائي هو قدرة الكاميرا التلفزيونية على اقتطاع قسم من المساحة . ومن هنا ينتج فرق آخر بين المسرح والتلفزيون وهو كيف يرى المشاهد الاحداث الجارية امامه . ففي المسرح نرى الاشخاص - اولاً - من بعيد ، وثانياً - من زاوية واحدة ، من نقطة نظر واحدة . بينما نرى اولئك الاشخاص على الشاشة التلفزيونية بشكل مختلف . فان المخرج يوزع وظائف الكاميرات وينوع اللقطات والزوايا .

في المسرح يرى المشاهد المساحة كلها دفعة واحدة ، بينما يرى المشاهد على الشاشة جزءاً من المساحة أي الكادر .

تملك الكاميرا امكانية الاقتراب من الشخص او الابتعاد عنه . وتعرض على المشاهد صوراً مكبرة بحجم الشاشة لجزء صغير ، ولكنه مهم بالنسبة للموضوع ، وبسبب من امكانيات الكاميرا يرى المشاهد على الشاشة اشياء من المستحيل رؤيتها في المسرح مثل عيون الانسان وهو يضغط وجهه على الحائط .

ان قدرة الكاميرا على الالتقاط من زوايا مختلفة وقطع جزء من المساحة تعني امكانية التوليف (المونتاج) . وان اطار الشاشة الذي يحدد مساحتها يكون وسيلة هامـــة للتأثير على المشاهد ، فهو مثل اطار اللوحة يوضح حدود الصورة ويسمح باختيار ذلك الجزء من الصورة الذي يهم المشاهد . اما في المسرح فعلى المشاهد ان يختار بنفسه المكان الذي سيوجه انتباهه نحوه ، مع ان المخرج

المسرحي يساعد في تحديد نظر المشاهد باتباع اساليب كثيرة مثل المؤثرات الضوئية وتوزيع الممثلين وغير ذلك . وبشكل عام فان انتباه المتفرج يكون مشروطاً ليس بمدى علاقة الممثل بالموضوع ، بل بالمكان المادي الذي يشغله الممثل من خشبة المسرح .

والديكور التلفزيوني لايشبه الديكور المسرحي . فقبل كل شيء لايوجد في الاستوديو ديكور كامل أو غرفة بثلاث جدران كما هو الأمر في المسرح . واكثر من ذلك لا يوجد حتى جدار كامل ، بل فقط جزء منه لايزيد عن متر ونصف . وفي الاستوديو ينصب الديكور لكل احداث المسرحية ، بينما يتغير الديكور في المسرح كل فصل . ليس من الضروري بناء ديكور كامل للزفة عندما يراد تصوير زاويتها فقط . في المسرح عندمايقف اثنان على الدرج ويتحدثان فاننا نرى الدرج والدرابزين . بينما يكفي ان نرى على الشاشة جزءاً من الدرابزين ، وتأتي الكاميرا بعد ذلك لتصور الممثلين من خلال لقطة كبيرة بحيث لاتبدو اقدامهم وهذا يعني انه مامن حاجة الدرج . هنا تبرز الصعوبة . فعلى الممثلين ان يتحركوا بحيث لايبتعدوا عن حدود الديكور . فان خطوة في غير محلها داخل الغرفة ترمي بالممثل الى الحديقة . وأما بالنسبة للمشهد على الدرج فعلى الممثلين ان لايتحركوا ، ففي الواقع ليس هناك درجاً . والآن نستطيع ان نفهم لماذا يستطيع المؤلف التلفزيوني ان يجري الاحداث في اماكن كثيرة ، في غرف كثيرة في الحديقة ، على السلم ، في القطار ، في الشارع ، وفي المطعم . الخ .

اما في المسرح فان المؤلف لايملك هذه الحرية . ومن النادر ان نرى في التمثيلية المسرحية ديكوراً لسبعة او ثمانية اماكن مختلفة . ولقد برز في الفترة الاخيرة اتجاه لتأليف مسرحيات ذات ديكور واحد . ومن ناحية اخرى فان على

المؤلف التلفزيوني ان يبني الموضوع (وان كان ضمن اماكن كثيرة) على ان تكون الحركة فيه قليلة . بينما في المسرح يمكن ان تشغل الحركة كل خشبة المسرح .

لقد اشرنا من قبل الى خاصية تشابه مهمة وهي وحدة الحدث على الشاشة وعلى خشبة المسرح ووحدة الزمان والمكان . وهذا يعني ان الحركة على خشبة المسرح وعلى شاشة التلفزيون يجب ان تكون مستمرة . يجب ان تكون النشرة التلفزيونية مستمرة ومن العبث ايقافها لاختصار جزء من الوقت . يجب ان تملأ الشاشة طوال الوقت بتيار غير منقطع من الصور .

والفرق الاهم بين التلفزيون والمسرح يتلخص في ان التلفزيون لايعرض على المشاهد العالم الحقيقي (الفيزيائي) بل يعرض انعكاساً صغيراً له على الشاشة . ويمكن ان ترى مساحة الشاشة التلفزيونية المحصورة ضمن اطار من زوايا وابعاد مختلفة ، وتخضع لعملية المونتاج . وبكلمات اخرى فان الشاشة التلفزيونية تملك بعض الصفات التي تملكها شاشة السينما . ان الخاصية الاساسية التي تقرب التلفزيون من المسرح تقربه في الوقت ذاته من السينما .

* * *

أمسية في أواخر الخريف [1]

(مسرحية اذاعية)

فريدريش دورينمات [2]

ترجمة : محمد حافظ يعقوب

الشخصيات :

المؤلف

الزائر

---

(١) عن مجلة ADAM السويسرية . وهي مجلة شهرية تصـــدر باللغتين الانجليزية والافرنسية وتعنى بالشؤون الادبية .

(٢) لعلنا نفتقر الى المسرحية الاذاعية المكتوبة التي تعتبر فنا قائماً بذاته من حيث كونها مسرحية تمثل من وراء الميكروفون . اي انها ، بعكس المسرحية المألوفة (التي تمثل على خشبة المسرح ويشاهدها الجمهور عيانـــاً) لا تعتمد على حركة الممثلين والديكور وغيرهما من ضروب التقنية المرحية ، بل تعتمد على الصوت . . والصوت فحسب .

ويعتبر دورينمات من أشهر المؤلفين المسرحيين في العالم بأسره. فأعماله بالاضافة —

السكرتير

السيدة الشابة

السيدة الشابة الاخرى

مدير الفندق

موتو Motto

« لابد ان يكون السيد كوربيس شريراً للغاية»

(الأخوان جريم)

المؤلف : (ويمكن ان يقوم كلامه بدور مرحلة التمهيد) سيداتي سادتي . سأقسم منذ البداية على انني اجد من واجبي ان اقدم اليكم قصتي المدهشة والحقيقة – واصدقكم القول – بكل معنى الكلمة . ورواية القصص الحقيقية مسألة شديدة الخطورة . لأن البوليس والرأي العام ، سيغضب غضباً شديداً انطلاقاً من واجبه ، سيستمع لكل هذا . وليس في الامر مايهم ، اذ بما انني سأحكي كل شيء ، اشعر انكم ستصدقون فعلا ان قصتي حقيقية ، فانني سأ من جانب الرأي العام . وانتم تعلمون بالمقابل ان البوليس – لاتخافوا – يؤكد انني سأكون آمناً اذا رويت القصص

– الى كونها طبعت عشرات المرات،وبيع منها بلغتها الالمانية الاصلية مئات الالاف من النسخ ، ترجمت الى عشرات اللغات ، ومن ضمنها اللغة العربية .

ودورينمات (سويسري الجنسية) من مواليد ١٩٢١ في احدى القرى القريبة من برن . حصل سنة ١٩٥٩ على جائزة شلر التي منحتها مدينة « مانهايم » في المانيا. ويعتبر دورينمات من أبرع الكتاب الكوميديين المعاصرين ، بل ومن الممكن مقارنته بكبار الكوميديين العالميين : أرسطوفان ، موليير ، جيرورد : الخ . وهو يرى ان الكوميديا واسلوب الهزل من العالم « اللامعقول » هو الاسلوب المسرحي الوحيدالممكن اليوم . ومع ان دورينمات يعتبر العالم لامعقولاً ، الا انه متفائل للغاية « لأننا نستطيع احتماله » على علاته ولا معقوليته . (ولا نخال اننا بحاجة الى القول ان هذه المسرحية الاذاعية ، التي قمنا بترجمتها ، هي مسرحية هادفة ، وتعالج موضوعاً انسانيا هاما جداً ، بأسلوب دورينمات المعهود : السخرية اللاذعة والنقد الهادف البناء .)

الحقيقية فحسب . والان ، هل استطيع أن أسألكم استخدام عقولكم لدقائق معدودات ؟ تصوروا انكم وجدتم انفسكم في غرفة بفندق فخم. ان النقود يأخذونها مسروقة ، – وكذلك فالملابس عصرية جدا مع كل لوازم الاقامة الطويلة . هل تخيلتم ذلك ؟ والى اليسار (ليس عليكم الا ان تغلقوا اعينكم فحسب اتروا الغرفة – تقدموا ، تشجعوا ، ان على أي منكم ان يمتلك مخيلة عادية جدا في حالة عدم تصديقكم اياي) الى اليسار ، كما قلت ، هناك عدد من الطاولات المصفوفة خلف بعضها . هل أبديتم في حياتكم اهتماماً ، ولو لمرة واحدة ، بكيفية عمل الكاتب ؟ حسناً اذن ، اقتربوا قليلا . انكم تخيبون ظني . نعم ، أعلم ذلك ، في الحقيقة ليس في الامر اختلاف كبير بين هذه الغرفة وبين اية غرفة عمل اخرى لكاتب غير معروف : فالأوراق تغطي المكان ، آلة كاتبة ، مسودات ومبيضات من كل أنواع الحبر والوانه ، اقلام رصاص ، اقلام حبر وريش نشافات ، عايات ، ومقص كبير . وكذلك كمية من الصمغ . تصوروا فقط جهازاً معلقاً يهدف قطع حنجرة امرىء ما ، اذا لزم الامر . والى جانب الطاولة ، ثمة بار من طراز خاص ، كونياك ، ويسكي ، نبيذ احمر وما الى هنالك . وبالطبع ، فان تخيلنا هذا لايفيدنا فيما اذا كان كاتبنا عبقرياً ام لا . بيد اننا لن نهتم ، لأن هذا التخيل لايخبرنا أي شيء ضده كذلك . أما عين الغرفة ، فان الدهشة ستتملكك للاناقة الكبيرة البادية عليه ، وخاصة اذا ابعدت ملابس المرأة المستلقية هناك خلف الخوان . وهناك عدد من الأرائك الكبيرة الملساء والمريحة ، والعصرية جداً ، والكتب في كل مكان ، واللوحات والصور على الحائط ، ولكن هذا سنلاحظه فيما بعد . اما الشيء المتحرك فهو الارضية . وثمة باب كبير مفتوح ، وشرفة تطل على منظر بهيج ومريح للاعصاب : بحيرة هادئة كانت لأسابيع قليلة خلت مليئة بالاشرعة الحمراء والبيضاء ، وتظهر كذلك تلال واشجار وجبال . ولا يوجد احد على الشاطىء . وثمة غسق خريفي جميل . والوان كرنفالية حمراء وصفراء .

أما الدلائل الوحيدة على الحياة فصدرها باحة ملعب التنس . هل تستطيع سماعهم؟ ولكن لنعد الى داخل الغرفة ولنلق نظرة متفحصة على الشخصيتين الرئيسيتين في مسرحيتنا . ومن الافضل ان نبتدىء بي أنا ، نعم بي لأنني

- وعفواً إذا قلت - واحد من الشخصيتين الرئيسيتين . بيد أنني كنت قد وعدت ان اعاملكم بمنتهى اللطف ، ولذلك فسأكون حذراً في دخولي من اليسار خارجاً من غرفة النوم . وفي الحقيقة امضيت ليلة حمراء ولكن ما افعله لا يخص احداً ، مع ان بعض الصحف المسائية او المجلات المصورة تهتم بذلك كثيراً . وغالباً ما يجدون الحبر (ونادراً ما يفتعلونه) لقول إن حياتي مضطربة وقاسية - ولا يهمني أن اقول ان ذلك صحيح. وبعد ذلك يكفي ان تسمعوا اسمي : كوربيس . وستعرفوا كل شيء . نعم ، وهذا كل شيء : أنا مكسيمليان فريدريش كوربيس ، روائي ، وحائز على جائزة نوبل .. الخ .. الخ . ضخم الجثة ، بني اللون كمثل لون البيرة ، غير حليق ، وذو صلعة عريضة . وأنا عربيد سكير . ولأنني شريف فانني أعيد على مساعكم الانطباع الذي يحمله الناس عني . فاذا كان هذا الانطباع صحيحاً ، فسأكون كما وصفت نفسي تماماً وكما تعرفتم علي ، أيها السيدات والسادة ، من اقوال الصحف وصور المجلات . وعلى كل حال ، فان ملكة السويد ، حين كنت اتسلم الجائزة التي اخبرتكم عنها الآن ، جائزة نوبل بالطبع ، وجدت انني ابدو بالضبط كما تعرفت الي من الصور . ولقد كنت في ذلك المساء ضعيفاً ولم اعرف كيف تمكنت من سكب زجاجة بوردو على ملابس الملكة . ولكن دعونا لا نزعج أنفسنا. انني مازلت انتظر ذلك الرجل الذي يفهم بواطنكم - وانا اعرف نفسي مبدئياً معرفة حقة. وهذه مفاجأة قاسية ، لأنه من النادر للغاية ان يستحوذ المرء على فرصة أن يعلم نفسه . ومرة ، عندما كنت اتزلج على الجليد في كليمنجارو ، ومرة اخرى عندما كانت اياها ، حسناً ، انكم تعلمون حتماً أعني ، مادونا الشيطانية - كلا ، انها ليست المرأة التي امضيت معها الليلة الماضية ، بل هي امرأة اخرى حطمت الاشياء في رأسي ؛ أو على أية حال فإن ما تبقى من الموضوع يمكن أن تتخيلوه لوحدكم . ولكنني قبل أن انسى ، فانني افضل ان اخبركم شيئاً عن ملابسي : ومنها ، سأسألكم ثانية ألا تؤاخذوني ، وبالأخص اثنين أيتها السيدات المستمعات . اذ كنت مازلت في مناموتي ، التي يبدو منها شعر رأسي الأبيض الكثيف . وهذا النوع من الأشياء لا استطيع اخفاءه . وكنت احمل كأساً فارغة في يدي وعازماً على الذهاب الى البار ، ولكنني تجمدت في مكاني لأنني شاهدت فجأة شخصاً

غريباً في الغرفة . والله يعلم كيف دخل . ولن يستغرق وصف شخصيته الوقت الكثير . كان يبدو قصيراً ، نحيفاً ، بله وقبيحاً . ربما كان عميلاً قديماً لشركة تأمين . وطبعاً، كان يحمل محفظـــة صغيرة في يده . ولسنا في حاجة كي ننظر اليه بعمق أكثر لسبب بسيط هو أنه سوف يختفي في نهاية القصة؛ ولا اظن ان وجوده سيمتعكم للغـاية . ولكني اثرثر كثيراً . كان زائري سيتكلم ولذلك افسحت له المجال .

الزائر : (بحذر) أؤدي شرف تحية الشاعر العظيم مكسيمليان فريدريش كوربيس؟

المؤلف : (بخشونة) اذهب الى الجحيم . من الافضل ان تخـبرني كيف اتيت الى غرفة دراستي ؟

الزائر : ادخلني سكرتيرك . لقد انتظرت في الخارج ساعات طويلة .

المؤلف : (بعد تحديقه ، وبفظاظة) من انت على اية حال ؟

الزائر : اسمي هوفر . فورشتيفوت هوفر .

المؤلف : (باهتمام) يبدو وجهك مألوفاً لدي (يقترب منه لينظر اليه بشكل أفضل) ألست الشخص الذي يواظب على مراسلتي؟

الزائر : هذا صحيح . منذ قدومك الى ابن هوسباح وأنا أحاول ان اتحدث مع البواب ولكنه كان يبعدني . وفي النهاية صممت أن احاول مع سكرتيرك . إنه يبدو شاباً صارماً ، أليس كذلك ؟

المؤلف : يدرس اللاهوت . دودة كتب. أمر عزن. يجب أن يدعم موقفه في الجامعة؟

الزائر : لقد تحملت كل آلام العالم كي أريه أن هـذه المقابلة عظيمة الأهميـة بالنسبة لكلينا . . . يا سيدي .

المؤلف : من الأفضل ألا تكرر يا سيدي هذه . ادعني كوربيس فقط .

الزائر : إذن ، عزيزي السيد كوربيس .

المؤلف : بما أنك قريب من البار ، هلا تكرمت وناولتني الوسكي ! إنه على يمينك .

الزائر : طبعاً .

المؤلف : شكراً (يسكب لنفسه كأساً) . هلا تناولت كأساً ؟

الزائر : لا أفضل ذلك .

المؤلف : إذن خذ كامباري . ابسلت . أي شيء .

الزائر : كلا . شكراً .

المؤلف : اشرب الشاي إذن .

الزائر : كلا . أيها العزيز . لقد وجدت نفسي أخيراً في حضرة رجل عبقري . أخال شعوري كشعور القديس جورج ساعة حربه مع التنين .

المؤلف : أنت كاثوليكي ؟

الزائر : بروتستانتي .

المؤلف : يجب أن أشرب ثانية .

الزائر : اعتن بنفسك جيداً .

المؤلف : (بخشونة) احتفظ بنصائحك لنفسك .

الزائر : عفواً ، يا سيد كوربيس ، ذلك فقط لأنني سويسري من الصميم . هل ألقي نظرة متفحصة على غرفة الشاعر ؟

المؤلف : (بفظاظة) الكاتب .

الزائر : التي يكتب فيها الكاتب أعماله ؟ والآن فأنا أرى ، كتب وملازم في كل مكان . هل تسمح لي بأن أنظر إلى الصور المعلقة على الجدار ! يا الله ، توقيع فوكنر « إلى عزيزي كوربيس » . وكذلك توماس مان : « إلى كوربيس ، مع اعجابي وحبي ، توماس» . وهيمنجواي:« إلى كوربيس صديقي العزيز . صديقك أرنست » . وهنري ملر : « إلى كوربيس ، روحي القلقة . بالحب وبالفعل فقط نستطيع أن نخبر روحنا الداخلية » وماذا عن المنظر ؟ أليس بهياً ؟ البحيرة والجبال في الفراغ والغيوم الثابتة . والشمس غربت الآن . اللون الأحمر يغمر .

المؤلف : (بدهشة) هل أنت كاتب أيضاً .

الزائر : قارىء فقط . احفظ كل رواياتك عن ظهر قلب .

المؤلف : أنت معلم إذن ؟

الزائر : كلا . انا محاسب . محاسب . محاسب معقب لدى اوسشلي وتروست ،منشأة قديمة في ايلتويل بيورك .

المؤلف : اجلس

الزائر : شكراً جزيلاً .شكراً ، علي أن أعترف انني مرتبك حيال هذه الكراسي العصرية جداً . انك تعيش في مكان فاخر ، كما علي ان اقول

المؤلف : والاجرة فاخرة كذلك .

الزائر : أستطيع ان اتصور جيداً ، آيز هو هياد مكان غال ، غال لدرجة مزعجة وقاتلة .. انا اعيش في ارخص مكان على الاطلاق ، في البنسيون الذي تراه من الشرفة (يحدق) انه ارخص مكان في أدلبودن .

المؤلف : في آدلبودن ؟

الزائر : في آدلبودن .

المؤلف : لكنني مكثت فيها منذ أمد ليس ببعيد .

الزائر : أعلم . كنت في فندق ويلد ستروبل الفخم . بينما كنت انا في فترة النقاهة . لقد قابلتك عـــدة مرات . شاهدتك مرة في الأنجستلينجالب ، ومرة في منتجع بادن بادن .

المؤلف : لا أظنك ستقول انك كنت في بادن بادن .

الزائر : طبعاً .

المؤلف : عندما كنت هناك ؟

الزائر : نعم . كنت اقيم في سيلوهستبل .

المؤلف : (بامتعاض) اسمع . وقتي ضيق . ولقد ترددت آلاف المرات على مثل هذه الأماكن في حياتي . لا استطيع ان امنحك اكثر من ربع ساعة . اخبرني بسرعة ماذا تريد ؟

الزائر : أتيت لغرض محدد في عقلي .

المؤلف : (واقفاً) لاتقل إنك تريد نقوداً مني ؟ لقد قلت لك أنني لا أستطيع أنه

أمنح قرشاً لأي شخص في العالم . هناك كثيرون لم يكتبوا لكي يعيشوا . لماذا لاتسألهم ، وتترك الناس من امثالي وحيدين ؟ وإلى جانب ذلك ، فان نقود جائزة نوبل قد ذهبت منذ زمن بعيد . والآن ، حقاً ، لقد انتهت ربع الساعة .

(يهم الزائر بالانصراف)

الزائر : ولكن .. ياسيدي المبجل .

المؤلف : اسمي كوربيس .

الزائر : عزيزي السيد كوربيس .

المؤلف : هيا . سأخرج معك .

الزائر : (موتبكاً) فهمتني خطأ . لم آت لأطلب منك نقوداً . لقد أتيت ، حسناً ، (وبتصميم) ، لقد اتيت لأنني اصبحت مخبراً سرياً .

المؤلف : (وهو يغطي انفعاله) أوه ، هذا يختلف إذن . لنجلس ثانية . والآن فأنا أستطيع التنفس بحرية . وهكذا انضممت إلى البوليس ؟

الزائر : كلا .. ياسيدي .

المؤلف : إن اسمي هو كوربيس .

الزائر : عزيزي السيد كوربيس . إنني مخبر خاص . حتى عندما كنت محاسباً ، فلقد كان ثمة الكثير من الأمور التي يمكن تصيدها وتغطيتها . وهكذا فلقد أوتيت الفرصة للتدرب في حياتي . كما كان حظي جيداً عندما عملت كمفتش حسابات لعدد من الشركات الكبيرة . وبينما حققت بعض النجاحات ، خططت لرؤية أمين الصندوق في احد المصارف الذي كان يبدو انه يختلس النقود المؤتمن عليها . انني ارمل والاطفال لي . وبالنقود القليلة التي ادخرتها صممت ان أكرس بقية حياتي لهدفي الأساسي وهو الدفاع عن الناس . وهذا عائد تماماً الى انني اقرأ كتبك .

المؤلف : كتبي ؟

الزائر : نعم ، كتبك الخالدة . لم تفشل البتة في اشعال نار تخيلاتي . كنت ألتهمها بعينين مشتعلتين وباهتمام لانظير له للجرائم التي وضعتها . ولقد بدأت مهنتي

كمخبر بنفس الحماسة الصوفية التي يخترق بعضهم النار من اجل خدمة الاله . والآن ، يا الهي ، إنني اجلس الآن وجهاً لوجه مع حامل جائزة نوبل ، بينا تغرب الشمس ببطء خلف هتلبرغ وأنت تحتسي الويسكي .

المؤلف : ثمة فاصل شعري فيا تقوله ، ياعزيزي فورشتيفوت هوفر .

الزائر : كل ذلك من خلال قراءاتي لكتبك .

المؤلف : آسف لسماع هذا . تبدو ثيابك متسخة . لا أظن انك تقضي وقتاً طيباً في مهنتك هذه .

الزائر : الحياة ليست فراشاً من الورد لكل شخص . عليك ان تعرف ذلك .

المؤلف : إن وزير العدل صديقي . ربما استطيع ان أكتب له من اجل مساعدتك . ماذا تريد ان تتخصص ؟ العقوبات ؟ الطلاق ؟ ربما تجارة الرقيق الابيض ؟

الزائر : الحقل الأدبي هو اختصاصي .

المؤلف : (واقفاً) اذن ، وللمرة الثانية ، أطلب منك ان تغادر الغرفة فوراً .

الزائر : (واقفاً كذلك) ولكن ياعزيزي السيد كورييس .

المؤلف : كل المفاجأة أنك تحولت الى ناقد .

الزائر : هل لي ان أعلم ماذا تقصد بـ ...

المؤلف : أخرج .

الزائر : (يتنهد) ماذا فعلت غير تفحصي لكتبك بحثاً عن مضمونها الجرائمي ؟

المؤلف : (يسترجع هدوءه) في هذه الحالة نستطيع الجلوس . لنجلس .

الزائر : شكراً ... لقد أنقذتني .

المؤلف : انني افهم جيداً ان ادرس ككاتب سيكولوجي ، كاثوليكي ، بروتستانتي ، وجودي ، بوذي ، أو حتى ماركسي . ولكنك المرة الاولى التي ارى اعمالي تدرس من هذه الزاوية الجديدة التي تقولها .

الزائر : من فضلك دعني أتكلم ، لانني سأوضح لك .. يا سيدي المحترم .

المؤلف : اسمي كورييس

الزائر : اذن يا عزيزي السيد كوربيس ، لقد قرأت كتبك على انها تستند على اساس من نظرية فلسفية . ولقد قلت لنفسي ان كل ما ظهر في مؤلفاتك من خيال محض لابدو أن يكون له اساس في الواقع . ولكنني ببساطة لم استطع ان اتصور انه من الممكن تخيل امر لم يحدث ..

المؤلف : (عدقاً) هذا يصفعني بحقيقته العارية .

الزائر : حسناً ، ولقوة محبتي ، بدأت أنظر الى الجرائم الموصوفة في رواياتك ، من حيث قدرتي على التحقق منها في الحياة نفسها .

المؤلف : (بصوت ضعيف) وبكلمات اخرى ، فانك تؤمن أن ثمــة ترابطا بين رواياتي وبين احداث معينة .

الزائر : بالضبط . ولأشرح لك اولا كيف انني ابتدأت بحثي بمنطق ضعيف. لقد ألقيت نظرة اول على كل كتبك ، وتوصلت الى نتيجة هي انك لست كاشف فضائح بين الكتاب الحديثين فحسب (ولا تترك الصحف فرصة الا وتتحدث عن طلاقاتك ومغامراتك العاطفية ، وصيــدك للوحوش والنمور) ، ولكنــك كذلك اعظم من كتب عن الجريمــة في الأدب العالمي .

المؤلف : لم اكتب عن الجريمة لذاتها . كان غرضي ان اوضح الطبيعة البشرية بشكل عام ـ الرجل في كل ظروفه التي تجعل منه قادراً على الجريمة .

الزائر : كخبير سري ، لم ابد اهتماما كبيرا لغرضك في الوصف ، بل كمنجزات حقيقية . قبل ان تظهر ككاتب في الجريمة كنت تعتبر شيئاً مرعباً . كانت رواياتك تكشف ، حتى في تلك الجوانب المظلمة من الحياة — او حتى في الموت — ، عن كلا العظمة والجمال . ومن اجل هذا اشتهرت في العالم سيداً للمجرمين .

المؤلف : هذا من دلائل شعبيتي .

الزائر : وهي دلالة تقدير كذلك لكونــك خلقت مجرمين عباقرة لا يتطرق اليهم الشك .

المؤلف : (باهتمام كبير) انت تقصد نهــاياتي ، فلتقل ، يجعلي المجرمين يفلتون من القبض عليهم وذلك بوضعهم موضع عدم الشك ؟

الزائر : نعم

المؤلف : م ! لقد قرأت رواياتي كما لو كانت مصنفات بوليسية .

الزائر : كلا ولا مصنفات جرمية . ابطالك لا يقتلون من اجل النقود او لفشلهم في الحب . انهم يقتلون كي يحصلوا على السعادة النفسية ، من اجل التمتع بالحياة النقية ، او لأنهم لايخضعون لضغط الحاجة الى التجريب . ليستدوافعهم كتلك التي يعرفها علماء الجريمة الارثذوكسيون . ومن الواضح ان مجرميك اكثر براعة من البوليس ومن الرأي العام . ولهذا فهم ينجون دائماً مما يقترفون . واستناداً الى القانون ، حيث لا توجد الدوافع لا توجد الجريمة . ولنفترض ان جرائمك التي تصفها قد حدثت فعلاً . فانها ستظهر للناس وكأنها حوادث انتحار فحسب ، حوادث او وفيات طبيعية .

المؤلف : هذا طبيعي ، اليس كذلك ؟

الزائر : حتى هذه المرحلة من تجربتي شعرت كمثل ذلك الفارس الاسباني الدون ...

المؤلف : كويكسوت

الزائر : الدون كويكسوت ، الذي ذكرته مراراً في رواياتك . لقد دفعه اعتقاده ان فروسيته الرومانتيكية امراً حقيقياً . ولقد قررت ان افعل نفس الشيء ان آخذ رواياتك على انها قصص حقيقية . ولكن ليس مثل الفارس الاسباني ، اذ لا اريد ان يتلفني اي شيء في العالم .

المؤلف : (مأخوذاً) رائع ! أي عمل عظيم قمت به ! (يقرع الجرس) ياسباستيان سباستيان !

السكرتير: نعم ياسيد كوربيس . هل ترغب في أي شيء ؟

المؤلف : نعم . سوف نعمل الليل كله . قدم للسيد هوفر سيجاراً . ربما سيمنحه ذلك بعض السعادة . من أي نوع تريد ؟ برازيلي ، هافانا ؟

الزائر : كلا .. كلا ، شكراً . اذا كنت لاتمانع فسأدخن سيجاراً من علبتي .

المؤلف : طبعاً . تستطيع الذهاب ياسباستيان ، وخذ المثقب بعيداً . لن احتاج اليه ثانية .

السكرتير: نعم ياسيدي (يخرج)

الزائر : اذا كنت تحب أن تعلم . لقد فكرت في الحيلة منذ زمن بعيد . . يا سيدي العزيز .

المؤلف : كوربيس .

الزائر : عزيزي السيد كوربيس . انتهت المقاومة . النقطة دقيقة للغاية .

المؤلف : ألا تريد ناراً . .

الزائر : شكراً . إنني أتمتع بالتدخين بهذه الطريقة .

المؤلف : من فضلك أشعل السيجارة يا عزيزي هوفر ، تمتع به بكل الوسائل ، فقط استمر في إخباري عن تحرياتك .

الزائر : ليست سهلة في البداية. لا بد من مقدمة. ولنبدأ بروايتك «طاولة المحاسب».

المؤلف : أولى أعمالي .

الزائر : نشرت منذ إحدى عشرة سنة .

المؤلف : التي منحتني جائزة بولتجن وأخرجها هتشكوك للسينما .

الزائر : كم هي قصة مثيرة ! مغامر افرنسي ، بدين ، أحمر الشعر ، غير حليق ، وذو جثة ضخمة ، وعبقري بشكل خارق ، وسكير ، قابل سيدة . إنها ساحرة الجمال ، كما يقول الإفرنسي ، وهي زوجة دبلوماسي ألماني . ولقد استدرجها إلى فندق وضيع في أنقرة ، مكان يجب ألا يدخله المرء . وبتأثير الويسكي ومقتطفات من شعر شيكسبير وهومير ، أقنعها أن السعادة القصوى التي يمكن أن يحصلا عليها سوياً تكمن في انتحارهما معاً . ولقد أخذت عاداتها العميقة لحظتئذ ، واستسلمت لكلام الرجل الخشن ، وانتهت حياتها بين يديه . ولم يقتل الرجل نفسه على أية حال . كل ما فعله هو أنه أشعل سيجاراً وغادر الماخور . ثم غير طريقه عبر المنطقة السيئة تلك ، واختطف من واعظ تركي صندوقه وعبر الحدود إلى إيران ـ بحثاً عن البترول . لقد بدت الرواية ، كما أكد ناقد مجلة زيوريخ الجديدة ، بدقة حبكتها وبلغتها المكثفة ، الرواية التي تجاوزت هيمنجواي بمراحل عديدة . .

المؤلف : (متعجباً) إنك لم تذهب الى تركيا ، كما اعتقد ، كي تتحرى هذه القصة ، ياعزيزي هو فر !

الزائر : وماذا علي أن أفعل غير ذلك ؟ لقد جمعت ، ودفعت مبلغاً لابأس به مقابل ذلك ، معظم الصحف الصادرة في أنقرة سنة ١٩٥٤ ، السنة التي حدثت فيها روايتك ، ثم تفحصتها بعناية فائقة بمعونة طالب تركي في المدرسة البوليتكنيكية .

المؤلف : وماذا كانت النتيجة ؟

الزائر : لم تكن زوجة ألماني بل دبلوماسي سويدي . امرأة حمراء الشعر فائقة الجمال تلك التي انتحرت في فندق من الطراز الوضيع جداً . وبالنسبة للأسباب ، كما فهمت ، فغير معروفة .

المؤلف : والرجل الذي دخلت وإياه ذلك الفندق القذر ؟

الزائر : ليس معروفاً .. بعد . ولقد علمت من البواب أن الشخص يتكلم الألمانية . أما بالنسبة للواعظ التركي الذي ضرب فلقد كان في حالة شديدة من الاضطراب لايستطيع معها أن يعطي أي تقرير واضح عن كيفية اختفاء صندوقه . وبعد ذلك فوراً ، بدأت أتفحص روايتك الثانية « السيد (x) الضجران » .

المؤلف : أوه . نعم . كتاب تشرشل المفضل .

الزائر : ولاعجب . فهي من الروائع . لقد بدا السيد × دموياً . ولقد وضعته في روايتك قبل أن يعترف به ككاتب . محرر ب . ي . ن الأمريكية . قابل فتاة في السادسة عشرة في سان تروبيز . وأخذ بجمال الطفلة وبطبعها اللامبالي . وتحت تأثير جمال الطبيعة ، وعظمة البحر ، والشمس الغاربة ، استيقظت غرائزه البدائية وتصرف كوحش . لقد اغتصب الفتاة وقتلها في المطر المنهمر . ولاشك أن هذه الصفحات تحتوي على أجمل وصف وأكثره إثارة للرعب كتب على الاطلاق بحيث أن اللغة تقيدك . وانني أشتعل حتى الآن من معانيها . لقد وقف البوليس حائراً . الدراجات النارية المألوفة ، السيارات الخارقة المزودة باللاسلكي ، البحث المضني ، والشك غير المجدي الذي كان يقف عاجزاً أمام القاتل نفسه - لانه كان مشهوراً جداً ، كثيراً بحيث لايأخذ البحث عن المجرم الحقيقي دوره

الصحيح . وعلى العكس ، فإن السيد × قبل سفره إلى لندن لمقابلة دار اللورد بايرون للنشر ، شوهد في المأتم . الوصف الذي انتهت فيه الرواية لمثل المآسي اليونانية .

المؤلف : (مبتسماً) عزيزي هوفر . لقد اندفعت بعيداً بحماستك ..

الزائر : (غير مكترث) في عام ألف وتسعماية وسبعة وخمسين ، قبل عشر سنوات خلت ، اغتصبت فتاة انجليزية في السادسة عشرة من عمرها وقتلت في سان تروبيز .

المؤلف : وماذا بشأن القاتل ؟

الزائر : غير معروف .

المؤلف : مثل قاتل المرأة السويدية ؟

الزائر : بالضبط (متردداً) بالرغم من تحريات البوليس الدقيقة جداً .

المؤلف : (بفخر) نعم . بالرغم من ذلك .

الزائر : وبالرغم من السلطات التي مازالت عاجزة عن التوصل الى بصيص من ضوء حتى الآن ؟

المؤلف : وماذا بشأنك أنت ؟ هل حاولت ان تكتشف شيئاً؟

الزائر : أأستطيع اعطاءك قائمة بالاشخاص الحقيقيين الذين يشبهون شخصيات مؤلفاتك ؟ هذه هي القائمة ؟

المؤلف : نعم يمكن ذلك .. اثنان وعشرون ؟

الزائر : نفس عدد مؤلفاتك التي كتبتها ، ياعزيزي السيد كوربيس .

المؤلف : أكل هؤلاء الأشخاص ميتون ؟

الزائر : كلهم اختفوا بشكل غير متوقع ، إما بالانتحار وإما بحادث ما ، عدا الفتاة الانجليزية المغتصبة .

المؤلف : لماذا يوجد خط تحت اسم المليونيرة الارجنتينية جوانا ؟

الزائر : هذا المرأة تنطبق على مرسيدس ، التي تمثل بطلة روايتك « شيطان الليالي » لقد ماتت الملبونيرة ، على كل حال ، ميتة طبيعية في اوستيند .

المؤلف : م ، انها كما يجب ان اقول ، قائمة قيمة ..

الزائر : نتيجة عشر سنوات كاملة من البحث الجرائمي . ولكنني توصلت الى اكتشاف هام . كل هذه الانتحارات والحوادث حصلت ، باعزيزي السيد كوربيس ، في الاماكن التي كنت تقيم فيها عادة.

المؤلف : (يبدو كتلميذ مذنب) أهذا صحيح ؟

الزائر : نعم . كنت في انقرة وقتها انتحرت المرأة السويدية ، وفي سان تروبيز عندما قتلت الفتاة الانجليزية ، وكذلك في الاماكن العشرين التي وجد فيها الاشخاص العشرون الاخرون حتفهم ، وعلي ان اذكر ايضاً الوزير فون واتيتوبل واللورد ليفربول الذي مات مقطوع الـ...

المؤلف : في الحقيقة ، كل هؤلاء الاشخاص الذين وردوا في قائمتك

الزائر : بدون استثناء .

المؤلف : لابد أنك لاحقتني باستمرار .. ياسيد هوفر ؟

الزائر : لايمكن أن اقوم بدور الهاوي ، ولذلك كان علي أن اتبعك من عطلة الى عطلة .. من مكان غال إلى آخر . .

المؤلف : ولذلك لم تذهب الا الى آدلبودن وبادن بادن ؟

الزائر : كلا ، حيثما ذهبت ، كنت أذهب كذلك .

المؤلف : ولكن . لابد أن ذلك كلفك كثيراً ؟

الزائر : لقد اتلفت نفسي . لاتنس ان وسائلي كانت ضئيلة . وبالمقارنة مع الارباح الضخمة التي جناها مخدومي السابق ، او بستسلي وتروست ، كانت صغيرة جداً . كان علي أن اوفر أي قرش ، وحرمت نفسي كل المتع..ياعزيزي.

المؤلف : (مقاطعاً) كوربيس .

الزائر : نعم ياسيد كوربيس . كنت غالباً ماأذهب بلاطعام ، اذا كان ذلك يهمك .

وطبعاً . عندما ذهبت الى امريكا الشمالية قبل سبع سنوات ، لم أستطع اللحاق بك بسهولة . ولاكنت أفضل مصاحبتك في رحلتك السنوية في غابات الهند وافريقيا . . .

المؤلف : انها ليست هامة ابداً ، ياعزيزي هوفر . اصطدت النمور والفيلة فحسب..

الزائر : على كل حال كنت الى جانبك دائماً ..

المؤلف : لابد انك ..

الزائر : كنت تقيم في فندق فخم ، بينما لم أعرف إلا الفنادق الوضيعة ، ولقد حصلت حوادث كنت بالنتيجة تصفها كجريمة .

المؤلف : ياعزيزي هوفر . انك ولاشك من أطرف الاشخاص الذين قابلتهم في حياتي.

الزائر : لاأستطيع إلا ان اربط بين الحوادث في رواياتك والحوادث الحقيقية . والتطابق بينها كبير للغاية ... ولابد أنك موافق .

المؤلف : بالضبط .

الزائر : بعد الكشف على الحوادث جميعاً . وقعت منطقياً في صعوبتين: فاما انك تتناول الاشخاص من الحياة الحقيقية كنماذج لقصصك ، واما ان قصصك تحدث في الحياة الحقيقية تماماً كما وصفتها .

المؤلف : موافق

الزائر : (مؤكداً) حسناً اذن . اذا مادرس المرء الاحتمال الاخر . عند ذلك فان رواياتك ، التي يعجب المرء بعبقرية هذه المخيلة الخلاقة ، لايمكن ان تكون الا تقارير واقعية عن الاحداث . ولقد تطلب ذلك مني وقتاً طويلا لقبول وجهة النظر هذه . ولكنني متأكد الان انها وجهة النظر الوحيدة الممكنة . وهكذا توصلنا الى مشكلة جديدة : اذا كانت هذه الجرائم تقابل حوادث واقعية (أي جرائم فعلية) فأين تبدأ الحقيقة ؟ وهذا يقودنا طبعاً الى السؤال التالي : أين حدثت ؟

المؤلف : وماذا اكتشفت ؟

الزائر : (بتأكيد شديد) علينا أن ننقص عدد الجرائم الى معادل واحد : أبطالك

م دائماً شخص واحد هو نفسه باستمرار . قوي . وهو في معظم الحالات مكشوف الصدر وقت الجريمة : ضخم الجثة ، ينقلب وجهه متوحشاً ، يشرب الويسكي ولايتعتعه السكر . هذا هو النموذج المتكرر خلال كل أمواج نثرك المندفعة .

(صمت)

الزائر : أنت القاتل

المؤلف : وبكلمات اخرى . وفي الظروف المختلفة

الزائر : في كل الحالات الاحدى والعشرين .

المؤلف : أثنتان وعشرون .

الزائر : إحدى وعشرون . فحادثة المليونيرة الارجنتينية كان استثناء .

المؤلف : حسناً ، إنك تقصدت أنني نفذت كل الجرائم ؟

الزائر : إنني المسؤول . فأنا أقابل ليس واحداً من كبار الكتاب ، بل وكذلك أكثر المجرمين قسوة في كل الحالات .

المؤلف : (ساهماً) عشرون ..

الزائر : (بعزم) إحدى وعشرون مرة

المؤلف : لاشيء . انني افكر في هذه ...

الزائر : على المرء أن يذكر اسمك وهو ينحني ، ياسيدي ..

المؤلف : (مبتسماً) والان ، ياعزيزي فور شتيفوت هوفر ، ماذا تريد مني ؟

الزائر : ياعزيزي السيد كوربيس . لقد توصل اكتشافي الى نهايته . وأنا استطيع أن اتنفس ثانية . كنت ارتجف باستمرار حين كنت افكر في هذه اللحظة العظيمة ، ولكنني لم أقنط . أبصر في وجهك ، أنك لن تعاملني بفظاظة بعد الان . والان ، دعني أنهي ما أود قوله بسرعة ..

المؤلف : استمر من فضلك

الزائر : في البداية لم أفكر إلا في أن اسلمك للسلطات .

المؤلف : وهل غيرت رأيك بعد ذلك ؟

الزائر : نعم ياسيدي

المؤلف : لماذا ؟

الزائر : لقد راقبتك لمدة عشر سنوات . ولقد شاهدت براعتك في تصوير معاناة القتل ، وبأي تصميم محير أخذت ضحاياك ، وبأية عقلية أتقنت عملك ؟

المؤلف : إنك تثير اعجابي ياسيدي .

الزائر : بشكل كبير ..

المؤلف : كي تصبح مؤلفاً أم كاتباً ؟

الزائر : كي أغدو كلاهما . كلما تعمقت في دراسة جرائمك ، كلما تعلمت أن اقيم كتاباتك ككاتب . وانني أريد الان انقاذ لقتك . ؟

المؤلف : ماذا ؟

الزائر : (بهدوء وبساطة) إنني مستعد للتنازل عن متعتي العظيمة .

المؤلف : بكلمات أخرى . انك لاتريد أن تبتعد عني .

الزائر : قمت بذلك سابقاً ...

المؤلف : وماذا تريد بالمقابل ؟

الزائر : حديث صغير ، صغير جداً .

المؤلف : بأي شكل ؟

الزائر : إنني .. محطم . لقد ضحيت بكل شيء من اجل فني . انني لا أستطيع أن أترك حياتي التي تعودت عليها في خدمة علم الجريمة . ولا استطيع أن أواصل الانتقال من نزل غال الى آخر ،وسأعود الى عملي السابق في ابندويل بيورك . وطبعاً .. انك (بتريث)

المؤلف : استمر .

الزائر : الا اذا أضفت بعض النقود الى البنسيون الذي أخذته من أويستلي وتروست ، ولنقل ، ياعزيزي السيد كوربيس ، ستمائة او سبعمائة فوقك

سويسري شهرياً . وهكذا فانني أستطيع الاستمرار كجزء من حياتك، معجباً وظلاً .

(صمت)

المؤلف : ياعزيزي فورشتيجوت هوفر . لابد أن أعترف كذلك انني أيضاً راغب في التحدث الى عبقرية . اذا استعملت كلماتك الخاصة . انك وبلا شك ، أعظم مخبر قابلته في حياتي بقيمتك وملاحقتك ومنطقيتك وكل جهودك لم تذهب عبثاً ، انني موافق .

الزائر : وهكذا فانك تعترف

المؤلف : نعم

الزائر : المرأة السويدية ؟

المؤلف : المرأة السويدية

الزائر : والفتاة الانجليزية ؟

المؤلف : والفتاة الانجليزية .

الزائر : الأميرة وند شفرانز ؟

المؤلف : نعم ، وهي أيضاً . وكذلك المليونيره الأرجنتينية .

الزائر : عفواً إذا قاطعتك . ولكنك تعلم أن هذه الحالة استثنائية .

المؤلف : ولكن ياعزيزي...

الزائر : لا أحبك غشاشاً . انك لم تقتل المليونيرة

المؤلف : حسناً اذن . لن نعدها .

الزائر : على اية حال . فانك تعترف بالجرائم الاحدى والعشرين ؟

المؤلف : كلها جميعاً . انني أحب ان اقوم باستمرار بالاعمال العظيمة .

(صمت)

الزائر : (بحماس) هذه اللحظة أعظم لحظة في حياتي .

المؤلف : انك على حق . أعظم لحظة في حياتك ، ولكن ربما تكون بمعنى آخر غير

ما تتخيل .

(تخرج من غرفة النوم شابة تسير في تكاسل زائد ، ثم تختفي)

الشابة : أريد أن اخرج لأرى والدي ، يامكسيميليان فريد ريش .

الزائر : أليست ابنة الكولونيل الانجليزي الساحرة ؟ لقد عرفتها عندما كانت تسير حافية في الغرفة .

المؤلف : نعم . هي نفسها .

الزائر : جريمتك التالية ؟

المؤلف : كلا لسوء الحظ . ضحيتي الثانية ستكون شخصاً آخر . لاتنس ياسيدهوفر ، انك بالاضافة لبراعتك في التحري ارتكبت خطأ واحداً . ألا تعتبر ان عيشك الي سيكون لعبة خطرة بعد كل ماتعرفه عن حياتي الخاصة ؟

الزائر : تقصد انك .. ستقتلني ؟

المؤلف : بالضبط .

الزائر : ولكن ياعزيزي السيد كوربيس . فكرت بمثل هــذا الخطر ياسيد كوربيس . وبالنتيجة أخذت كل الاحتياطات اللازمة . في البداية درست وضعية شقتك . هناك نجمة أمريكية شهيرة تقيم بالقرب منك ، وثمــة كولونيل انجليزي الى يسارك ، وأرملة لطيفة من سيدات الطبقة الوسطى الى يسارك كذلك .

المؤلف : عفواً ، فالنافذة مغلقة .

الزائر : انك مخطيء . أخذت كل احتياطاتي : كان زوجها صاحب مخزن كبير في جنيف . ويوجد تحت شقتك مخزن شيرنوبنز . ان صرخة واحدة أطلقها كفيلة بأن تحدث اضطراباً في كل العالم ، ناهيك انك تريد قتلي دون أية ضجة . لا يبقى غير السم .

المؤلف : الان فهمت لماذا لم تشرب ؟

الزائر : نعم ، هذا هو السبب . ولم يكن من السهل علي ان ارفض كأساً من الويسكي .

المؤلف : لقد رفضت السيجار كذلك ؟

الزائر : لا أظنك نسيت انك قتلت لوربنزهو شسترامر بسيجار هافانا معطي بسم هندي خاص .

المؤلف : ياعزيزي فور شتيفوت هوفر . أنسيت انك قادم من انيتوبل بيورك ؟

الزائر : لا أرى مانعاً . انيتوبل ليست جرداء . ومن الممكن ان توفر للمرء حياة ثقافية حقيقية .

المؤلف : وهو كذلك . ان الاشخاص من المناطق الحية ثقافياً هم اكثر الناس بساطة والبرهان البسيط على ذلك انك لا حققتي طوال عشر سنوات دون ان تفكر في أن عقلك قاصر .

(يسكب لنفسه الويسكي)

الزائر : لقد برهنت على أمر ليس بحاجة الى برهان .

(صمت)

الزائر : (مأخوذاً) هل تريد ان تقول ان ...

المؤلف : بالضبط . ماتظنه سراً يعرفه العالم كله منذ زمن بعيد .

الزائر : (مذعوراً) ولكن هذا مستحيل . لقد قرأت مراراً كل الصحف الهامة في العالم ولم اجد مايدل على ماتقول .

المؤلف : تظهر الحقيقة هذه الايام في صحف الاشاعات ، ياعزيزي فور شيجوت هوفر خذ نفسك كمثال : انت تعلم كل جرائمي . تعال تعال . هل تصدق ولو للحظة واحدة ان الجمهور كان سيلتهم كتبي اذا لم يعلم الناس أنني اصف الجرائم التي انفذها بنفسي لاغير ؟

الزائر : ولكن ياسيدي العز ...

المؤلف : اسمي كوربيس .

الزائر : ياعزيزي السيد كوربيس. في هذه الحالة كنت ستعتقل منذ زمن بعيد !!

المؤلف : (مدهوشاً) .. ولماذا ؟

الزائر : (بيأس) .. لأنك قتلت مرة وثانية بدون انقطاع .

المؤلف : ماذا؟ إننا ننظر الى الأمور نظرة اخلاق الطبقة المتوسطة . شكراً لقوته، بلزاك ، بودلير ، فيرلين ، رامبو ، ادغار آلن بو ، . هذا ليس كل شيء. اذا كان المجتمع خائفاً من عبقريتنا الحية ، فانه مـع مرور الزمن سيبدأ بالاعجاب بنا لكوننا متوحشين. ألا تستطيع ان ترى ؟ لقد ارتفعنا الى هذه المكانة الاجتماعية العالية لأن كل شخص ينظر الينا ، عاماً ، ككائنات ممتازة . ان المجتمع لايقبل بنا فقط ، بل يولي اهتماماً كبيراً لحياتنا الخاصة، وسرعان ماتحقق امل ملايين الناس كأشخاص خارقين يستطيعون ويسمحون لأنفسهم بفعل اي شيء. ان خلقنا الفني جواز سفر حقيقي لمغامراتنا. هل تظن انني حصلت على جائزة نوبل على « الجرة والطفل » فقط ، اذا لم اكن انا نفسي القاتل ؟ ألا ترى هذه الرسائل ؟ انها تملأ المكان . سيدات الطبقة الراقية ، نساء الطبقة الوسطى ، والحوريات الفاتنات .. كلهن .. كلهن يؤكدن انهن سيكن سعيدات للغاية اذا ماقتلتهن .

الزائر : انني احلم .

المؤلف : ولذا فلقد اهدرت وقتاً كبيراً . النقد الأدبي وحده هو الذي يؤمن ان الكاتب لايفكر بشيء الا في اللغة والأسلوب . لكن الحياة الحقيقية ليست لها اية علاقة حقيقية بالأدب : انها مهنة ارضاء النوع الانساني . والجمهور ليس متعطشاً كلياً لأشكال جديدة في اختيار اللغة ، واقل من ذلك كله في المعرفة ، لكنه ينتظر بلهفة لكشف الحياة التي نحياها بلا امل . ولما لم يكن هناك امل البتة في حياة ممتلئة بالممارسة ، باللحظات الممتعة ، بالخطر والمغامرة، لانستطيع ان نحقق على مستوى الحقيقة الكلية اكثر من ذلك. الفن هو الوسيلة الوحيدة للتعبير . ولقد غدا الأدب الدواء الشافي للحياة المقيتة . لكن ، وياللأسف ، ولكي يقدم الكتاب هذا الدواء فهم مجبرون على الحياة التي يصفونها بدقائقها . وصدقني ان هذا النوع من الحياة غدا جحيماً لايطاق ، وخاصة اذا بلغ المرء سناً معيناً .

(تظهر شابة اخرى من خلال نفس الباب)

الشابة الأخرى : مكسيميليان فريدريش .

المؤلف : أخرجي .

(تختفي الشابة الأخرى فوراً)

المؤلف : انها نجمة السينا الامريكية . لقد حاولت كشاب ان اكره نفسي على ان اكتشف ذاتي وان اكونها من خلال القواعدالصارمة . وصحفيون عليون قليلون اعتادوا ان يشدوني الى الخلف ، مع ان اي كلب لم ينتبه الي . وهذا صحيح . وبعد برهة اعتنقت فكرة السلوك الأدبي وبدأت اناضل ، من اجل لاشيء . ذهبت الى ايران لاكتشاف البترول ، فشلت كذلك . ولم استطع ان اجد شيئاً آخر افعله غير ان اصف حياتي الخاصة ، ولكنني كنت خائفاً من ان يلقى علي القبض . وأول شخص شجعني باقراضي مبلغاً من المال كان الدبلوماسي السويدي . وهكذا كانت مغامراتي العاطفيةمعزوجته اول نجاح عالمي لي كذلك . وهكذا ابتدأت . والآن ،هلا شربتالويسكي من فضلك . لابد انك بحاجة لكأس ؟

(يسكب له كأساً)

الزائر : شكراً .. انني ... لا اعلم .. شكراً .

المؤلف : حالما ادركت ما الذي يريده العـــالم مني ، قررت ان اتخلى عن الخبر . وواصلت الكتابة عن حياتي الخاصة ، ولا شيء آخر . ولقد اكتسبت طريقتي من كوني اكتب دون طريقة ، والذي حدث هو انني ادركت فجأة اني الذي طريقتي الخاصة . وهكذا اصبحت شهيراً . المشكلةالوحيدة هي ان شهرتي اجبرتني ان اعيش في نمط قاس من الحياة ، لان الجمهوريريد ان يراني غارقاً في اوضاع كثيرة الاشمئزاز والقرف . يريد الناس ان يجربوا من خلالي كل شيء ممنوع عليهم . ولقد غدوت قاتل الجماهير . وكل مايحدث يزيد من شعبيتي . كتبي احرقت او اتلفت ، والفاتيكان وضعها في قائمة الممنوعات ، وهذا زاد بالتالي من تداولها . وهكذا فلقد اتيت بالبلاتات المضحكة ان رواياتي تنطبق على عدد من الحوادث الحقيقية ! ولا محكمة في اي بلد في العالم مستعدة لسماع حجتك ، واوكد لك ، لان العالم يريدني كما انا . وسيقول الناس انك مجنون ، كما قالوا بالضبط عن كل الذين حاولوا اتهامي بالقتل . اتظن حقاً انك الاول ؟ الامهات الثكالى ، والزوجات والازواج والابناء قرعوا ابواب المحامين ، طالبين الانتقام . وهنا فان تجربة جديدة ستحدث لان كل الجمهور ، ووزراء العــدل وحتى رؤساء الحكومات يقفون الى جانبي باسم الفن . وان اي شخص يسعى لاستدراجي

الى المحكمة سيرتكب لنفسه حماقة . وانت احق كذلك ، يافور شتيفوت هوفر . لقد بددت نقودك بطريقة حمقاء كلياً . أتتوقع الان ان اعيد لك اموالك ؟ من الافضل ان تنتظر امراً آخر . بل عليــك ان تصرخ

الزائر : (خائفاً) اطلب النجدة ؟

المؤلف : ولم لا ؟ فأنا بحاجة الى مادة جديدة ؟

الزائر : مادة جديدة ؟

المؤلف : وانت المادة الجديدة .

الزائر : ماذا تقصد بذلك ؟

المؤلف : لقد بدأت العمل .

الزائر : (متقمأ) لماذا اشهرت المسدس فجأة ؟

المؤلف : الم تفهم حتى الان ؟

الزائر : من الافضل ان اذهب .

المؤلف : لم اشهر مسدسي لتذهب . بل لأقضي عليك .

الزائر : اقسم لك بكل مقدس انني سأغادر آيزلهوهباد عائداً الى انيتويل فوراً.

المؤلف : آسف يا عزيزي . لقد اوحيت الي بفكرة مسرحية اذاعية ، وعليك الان ان تموت لانني لا استطيــع الكتابة الا عما اجربه . وهكذا ، فأنا امرؤ لاخيال لي ، وانا ببساطة لا استطيع ان اكتب سطراً واحداً عن اي شيء لم اراقبه بنفسي . ولكن لا تهتم ، فأنت من خلالي ستدخل عــالم الادب ، يافور شتيفوت هوفر . سيراك الملايين كما انت الان واقفــاً بالقرب مني متكمشا من الخوف ، وقد جحظت عيناك وانفتح فــك ، كهاوية سحيقة لتلقف شلال الرعب . انك كاريكاتير المحاسب الذي اضاعه جهله بالحقيقة فأودى بحياته .

الزائر : النجدة !

(صمت)

المؤلف : حسناً؟ هل دخل احد ؟ اين نجمتك السينائية ، والكولونيل الانجليزي ؟ هل خف احد لنجدتك ؟

الزائر : انك الشيطان .

المؤلف : لا تكن غبياً . انني كاتب فقط وبحاجة للنقود . وستذيع المسرحية التي سأكتبها عن قتلك كل محطات الاذاعة في العالم . وهكذا فانك ترى ان علي ان اقتلك . انها من مقتضيات المهنة . هل تظن ان ذلك يتعني ؟ الله وحده يعلم انني افضل ان أشرب وإياك زجاجة من الخمر واثرثر معك في الهواء الطلق ، من ان اقضي الليل بطوله اصف كيف قتلتك .

الزائر : الرحمة ، الا تشفق علي ، ياسيدي العزيز ؟

المؤلف : اسمي كوربيس

الزائر : يا عزيزي السيد كوربيس ، الا تشفق علي ، انني ارجوك ؟

المؤلف : لا رحمة عندما يتعلق الامر بالأدب .

(يسقط الزائر عن الشرفة)

الزائر : النجدة ! النجدة !

المؤلف : (بصوت مرتفع) انت الحالة الثالثة والعشرون !

الزائر : الثانية والعشر ...

(صوت ارتطام ثم صرخة قوية جدا)

الزائر : النجدة ! النجدة !

(صمت)

المؤلف : مجرد عمل !

السكرتير : يا سيد كوربيس ! ماذا حدث ، وحق الرب ؟

المؤلف : ألقى ضيفي بنفسه من الشرفة ، يا سباستيان . كل المفاجأة انه تجمد من الرعب . ولا استطيع فعلا ان اقول ماذا حصل له . ولكن ها هو مدير الفندق قادما .

مدير الفندق: عزيزي السيد كوربيس. سمعت ان احدم قاطعك. انه سقط فوق احدى شجيراتنا وحطمها . لقد تمزق اربا . منذ زمن بعيد وهو يزعج بوابنا بشكل جنوني . من حسن الحظ ان احداً لم يصب بأذى من جراء سقوطه.

المؤلف : اعمل من فضلك على الا يزعجنا احد ثانية ! انني مشغول في الكتابة .

مدير الفندق: (عائدا) .. بالطبع ، يا عزيزي السيد هوفر ، بالطبع ..

المؤلف : فلنبدأ العمل يا سباستيان . ولكن علي ان اشعل سيجاراً اولا .

السكرتير: دعني اشعله لك .

المؤلف : احرق هذه القائمة التي على الطاولة من فضلك ؟

السكرتير: ما كل هذه الاسماء ؟

المؤلف : مجرد اسماء . سنرجع غدا . لقد انتهى عملنـا في آيزلوهباد . سنسافر الى مالوركا .

السكرتير: الى مالوركا ؟

المؤلف : قطعة جميلة ممتعة على البحر المتوسط . هل انت جاهز للاملاء ؟

السكرتير: جاهز .

المؤلف : اذن فأنا ابدأ : سيداتي سادتي ، سأقسم منذ البداية انني اجد من واجبي ان اقدم قصتي المدهشة والحقيقية - واصدقكم القول - بكل معنى الكلمة. انروابة القصص الحقيقية مسألة شديدة الخطورة،لان البوليس والرأي العام سيغضب،انطلاقاً من واجبه، حين سيستمع لكل هذا. وليس في الامر مايهم، اذ بما انني سأحكي كل شيء، لانني اشعر انكم ستصدقون فعلا ان قصتي حقيقية ، فانني سآمن جانب الرأي العـام . وانتم تعلمون ان البوليس - لا تخافوا - يؤكد انني سأكون في امان اذا رويت القصص الحقيقية فحسب . والان، هل استطيع ان اسألكم ان تستخدموا عقولكم لدقائق معدودات ؟ تصوروا انكم وجدتم انفسكم في فندق فخم ...

* * *

أصل مسرح كراكوز (1)

فصل التأصيل

د. سلمان قطاية

اختلفت الآراء حول مصدر كراكوز او خيال الظل. فلقد ذهبت بعض الاقوال الى ان المصدر هو الصين، وسمي كراكوز بالظلال الصينية Ombres Chinoises .وقيل انها ظهرت حوالي قرن من الزمان قبل ميلاد المسيح.بينما يدعي البعض الآخر بأن المنشأ هو الهند ، وانها منحدرة عن بعض الطقوس الدينية .

ويؤكد بعض المؤرخين على ان واسطة انتقالها الى البلاد العربية كانت القبائل التركمانية المهاجرة من اواسط آسيا الى الغرب ، فكانت ايران اول محطة لها ثم العراق ، ومن العراق انتقلت الى باقي البلاد العربية في العصور الوسطى ، ويبدو ان الفضل في ذلك عائد الى محمد بن دانيال الموصلي .

ولقد عرف هذا المسرح انتشاراً واسعاً اثناء الحكم العثماني وازدهاراً كبيراً في ايامه. وبسبب اختلاف الآراء وتباينها حول المصدر والمنشأ ظهرت اساطير تفسر هذه الولادة. أما بالنسبة للكراكوز في مدينة حلب ، فقد ازدهر وانتشر ، ربما بسبب قربها من تركيا ، وبسبب محبة الحلبيين « للبسط والانشراح والليالي الملاح » ، اذ لا ننسى ان حلب كانت مركزاً تجارياً هاماً وعرفت قبل افتتاح قناة السويس ازدهاراً تجارياً كبيراً .

(1) واحد من سلسلة مقالات ستنشر تباعاً حول الموضوع نفسه .

ولقد استطعت ، بعد البحث ، العثور على آخر « خليلاتي » اي الفنان صاحب هذه الصنعة ، وهو السيد محمد مرعي دباغ الذي ولد في حلب في محلة الجلوم الكبرى حوالي عام ١٨٨٦ ، وهو عزب .

وافادني بأنه تعلم الصنعة على يدي الحـــاج مصطفى سرور وكان ايضاً من المعلمين فيها : ابو حمدو دلول وابو يوسف سراج ، ومحمد الشيخ .

واستطعت بشق الانفس ، أن اسجـــل له على شريط فصلاً يشرح اسطورة أصل كراكوز واودعت الشريط ، بعد نسخه ، في ارشيف اذاعة حلب .

هذا علماً بان ادارة متحف حلب قد اشترت منه الجلود التي كان يقوم بتلعيبها وهي في قسم التراث الشعبي من المتحف . وجدير بالذكر انها من اجـــل مارأيت من رسوم الفنون الشعبية . تفوق اصالة وجمالاً رسوم ابو صبحي التيناوي . وهي مصنوعة من جلد الجمل الملون النصف شفاف ، من قبل ابو يوسف السراج ، وعددها يقارب المئة .

وها أنذا اقدم « فصل التأصيل » او « فصل كراكوزين وعيواظين » بعـــد تصرف بسيط جعل من الفصل مسرحية حقيقية جديرة بأن تقدم على خشبة مسرح حقيقي ومع ممثلين حقيقيين .

وتدعي الاسطورة أن ولادة هـــذا المسرح حصلت في ايام السلطان محمود العثماني ، دون ان تذكر بالدقة ان كان هو السلطان محمود الاول الذي حكم من عام ١٧٣٠ الى عام ١٧٥٤ ، او محمود الثاني الذي حكم من عام ١٨٠٩ الى عام ١٨٣٩ .

(نغمة عود ثم ضربتين . يفتح الستار . في الصدر منظر مدينة حلب من بعيد كما ترى مثلا من جبل الجوشن . كراكوز واقف . وحين رفع الستار مباشرة يدخل عيواظ)

عيواظ : اهلا وسهلا وميت السلامات بأخي كراكوز أبن الحلال عند ذكره بيان .

كراكوز : وفي هالدقن الكويسة خير انشاء الله كان .

عيواظ : ولك أخي كراكوز كنت عمابفكر في حالي بقول : أي بيتذكر أخي كراكوز كيف كنا وكيف صرنا . ومنين جينا أنا وهوه ؟

كراكوز : معلوم حضرت جنابك انو انا كنت مهرج عند الملك وكان يحبني كتير . وكل ما كان يزعل ويتكدر يصيح في الوزير (يسمع صوت الملك)

الملك : ياوزير .

الوزير : نعم مولاي .

الملك : هات عيواظ حتى يلعب لعباته وتتسلى شوى .

عيواظ : اي نعم ومن شدة حبه الي عطاني سرايا وخدم وحشم وكنت مبسوط وذات يوم من الايام قلت لحالي : انا بلعب وحدي هيك ماهي مظبوطه، لازم أشوف لي شي واحد تاني العب وأمثل معه قالوا لي بعض الناس من المحبين والصدقاء أمثال أسيادنا الحاضرين : انت ياعيواظ قلبك بارد لازمك واحد حق نزق حتى تطبقوا مع بعضكم البعض . وبلغ اسماعنا على انو في واحد في متل هالصفات بيشتغل بالتجارة لكن تجارته خاسرة وفلس واذا واجهته لازم تتفاهموا تمام .

كراكوز: اى والله بتذكر . شلون بعتلي تعزمني لعندك .قول رحنا لعندك وياعيني على هديك الأيام الكويسة . كنا في السرايا مبسوطين واللي بدنا ياه عندنا.

عيواظ : مومتل هلق عمانشتهي الخبزة مندور مانلاقيها .

كراكوز: كان الملك يحبنا ويدللنا .

عيواظ : وماحدا يستجري يمد ايده علينا .

كراكوز: بس انت بيرادتك نزعت لنا الطبخة .

عيواظ : انا الا انت بنرفزتك وحماقتك قت ورطتنا هالورطة وانخربت ديارنا .

كراكوز: اى انت انجلقت ومابقيت تعرف انفسك حدود خلت حالك صرت سلطان زمانك ومابقيت تحترم حدا .. حتى الملك ذاته .

عيواظ : اى انت كان بتنسى ؟ الحاصل الله يرحم هديك الايام . وفي ذات يوم من الأيام . .

(نغمات ناي خفيفة . تطفأ الأنوار ثم تعود ويظهر منظر حجرة الملك وهو جالس في الصدر لوحده وتبدو عليه علامات الغيظ والغضب. فهو تارة ينهض ويمشي جيئة وذهابا وتارة أخرى يجلس مفكراً مهموما . وفجأة يدخل كراكوز وعيواظ بملابس جديدة مهرجة)

عيواظ : يالله ياكراكوز لنلعبنا لعبة لمولانا الملك .

كراكوز: ولك اينا لعبة مانك شايفه مبوزم وعلى رأسه واقف الطير .

عيواظ : انت ايش بدك انا بعرفه تبلك وبعرف شلون ادبره .

كراكوز: ياملعون انت كل مرة بتورطني كل ورطة الله يحمينا .

(ينتبه الملك لوجودهما فيقف غاضباً)

الملك : مين سمحلكم بالدخول ؟

عيواظ : السلام على مولانا الملك حماه الله من كل حاسد بجاه النبي المنتسب وبجاه سيدي الشيخ رسلان .

الملك : مين قال لك تشرف لعندي بدون اذن ياقليل الأدب؟

عيواظ : مولاي سمعت انك حزين وغضبان قلت لحالي اجي احرج لك شوي بلكي هالحزن يخف عنك وتنسى همومك .

الملك : لعنة الله عليك .

كراكوز: لك شفت ياعيواظ شلون الملك اليوم ماهو على بعضه . قلتلك بلاهــا اليوم وبدك تروحنا في داهية .

عيواظ : لك سكوت شوي لأعرف شلون أدبره . (الى الملك) ياسيدي ومولاي انا عبدك انا تحت أمرك انا هنا في هالدنيا تسليتك .

الملك : الله يقصف عمرك .

كراكوز: ولك ياعيواظ هدا شايف لك الشر عمايطلع من عيونه ،وبعد شوي الله بيعرف وين بدنا نصفي .

عيواظ : يامولاي (ينحني عدة مرات) بتسمحلي ابدأ انا واخوي كراكوز بلعبه من لعبنا حتى تلسى همومك .

كراكوز: يامولاي نحن تحت أمرك اللي بتريده بيصير ، متل مابتؤمر وبتريد .

الملك : (بغضب) بريد اقطع راسكم !

كراكوز: ولي على راسي .

عيواظ : يامولاي انت مابتريدها

الملك : لا بريدها

عيواظ : طول بالك علينا ياسيدي ، والله لو نعرف هيك مادخلنا عليك

الملك : بتعرف ، انت ياعيواظ بتعرف كل شيء .

كراكوز: انا ياسيدي مابعرف شيء .

عيواظ : اي سكوت انت من قلك تقول : تحت امرك الّي بتريده بيصير ، ومثل مابتؤمر وبتريد

كراكوز: اي انا بعرف انو حضرتو قابضها جد

عيواظ : يامولاي حلمك علينا وعفوك وبيقولوا في الأمثال السارية : الحلم عند المقدرة والكريم من عذر .

الملك : وحياة راسي الا بدي اقطع راسكم وافش قهري هاليوم

كراكوز: ولي على راسي لك وقعتنا سودا اليوم ياعيواظ

الملك : (يصيح) : ياوزير

كراكوز: العما ، العما . لك لقطت ياعيواظ . كنـا بالتهريج والضحك صارت المسألة جد .

(يدخل الوزير ، ينحني عدة مرات)

الوزير : نعم مولاي ...

الملك : هات راس هالاثنين

الوزير : (مبهوتا) – ماسمعت سيدي اش امرتو

الملك : اقطع راس كراكوز وعيواظ

الوزير : يامولاي ... هدول خدامكم ، هدول جماعة دراويش ومساكين،بيقضوا كل وقتهم ليفكروا شلون بـدهم يسلوكم ويروحوا عن ذهنكم الافكار السودا .. وانكم بتحبوهم كتير .اي ايش صار حتى تؤمروا بقطع راسهم ؟

الملك : هدول دخلوا من دون اذن

الوزير : (لعيواظ) ولك شلون هيك بتدخل من دون إذن مولانا ؟

عيواظ : والله مابعرف . والله من حرقة قلبي وزعلي على زعــل الملك ، لأنوا سمعت انو زعلان قام طاش عقلي وطار من راسي ودخلت هيك قوام.. الحق كان على كراكوز

كراكوز: أنا!... ابي اش ساويت انا . لك يامنظوم مو قلتلك إتركني اليوم تعبان ومـالي قوة لا العب ولا اهرج . لكن انت من طمعتك بالبخشيش تميت علي حتى جبتنا للموت .

الملك : لاتطولوا السيرة . وزير !

الوزير : مولاي

الملك : هات راس كراكوز وعيواظ

الوزير : (مضطرباً) : ياسيدي نترجاكم الحلم والعفو وهدول هاق بدم يسترحموكم (يدفع عيواظ على الارض كذلك كراكوز) وهاي انبطحوا على الارض حتى يبوسوا اقدامكم حتى تعفوا عنهم (يدفع برجله الرجلين عند اقدام الملك)

الملك : ابداً . مابرضى الا بقطع روسهم .

الوزير : ياسيدي ومولاي انتو بتحبوهم كتير . واذا قطعت راسهم أنا. وبعد كام يوم راح غضبكم ورجعت الامور الى مجاريها . وقلتولي ياوزير : جبلي كراكوز وعيواظ لأتسلى اي انا منين بدي اجيبهم .

الملك : قلت لك هات روسهم .

الوزير : سيدي امرك على راسي .

كراكوز: ولي .. ولي .. ولك رحنا .. قضي علينا .

عيواظ : العما .. لك صارت شغلة مظبوطة .

الوزير : بس بترجاكم بشغله

الملك : نعم ؟

الوزير : اكتبوا لي امر خطي حتى اذا صار ماصار اذكركم بأمركم .

الملك : طيب .. هات القرطاس والقلم .

(يحضر الوزير ما اراد .. كراكوز وعيواظ يبكيان)

الملك : (يكتب) وهاي امر خطي بقطع روسهم

الوزير : (يصيح) حرس ، حرس ، (يدخــل حارسان) خدوا كراكوز وعيواظ وهاتوا روسهم للملك

(يخرجان وهما يجران كراكوز وعيواظ ، وهما يتوسلان ويبكيان).

كراكوز وعيواظ : دخيلكم . ابوس اجريكم ، ابوس ايــديكم ، خلصونا دخيل النبي

الوزير : كل شيء بأمركم يامولاي ، بس بدنا رضاكم .

الملك : هال . روح هلق من وجهي ، تركني لحالي .

الوزير : امركم يامولاي (يخرج القهقرى) .

الملك : وزير .

الوزير : نعم مولاي

الملك : اقتلهم

الوزير : امركم يامولاي مطاع ، لا تخافوا سينفذ امر القتل في الحــال . . . بس ياسيدي

الملك : نعم ؟

الوزير : بس ياسيدي مانغيروا رأيكم وتندموا

الملك : مابسمحلك بيهك كلام

الوزير : امركم : امركم (يخرج القهقرى)

(تطفأ الأنوار . وتسمع نغمة عود مدة ثواني ، ثم تعود الأنوار)

الملك : وزير

الوزير : (يدخل) مولاي .

الملك : اليوم أنا مبسوط ومرتاح . قلت لحالي لحــق أتسلى شوي . جبلي كراكوز وعيواظ .

الوزير : (بدهشة) اي مو قتلنام حسب امركم وأصبحوا كأمس مضى .

الملك : ولك من قال لك تقتلهم ؟

الوزير : انتم يامولاي

الملك : انا مالي علم ولا خبر

الوزير : (لنفسه) العما على هيك ملك كل دقيقة عقله شكل (للملك) ياسيدي انتو من بضعة أيام استدعيتوني بالعجل وقلتوا لي أنو اقطع رأس كراكوز وعيواظ لأنوا دخلوا عليكم من دون اذن .

الملك : ولك إشو هالحكي ؟ انا ماقلت هيك شي !

الوزير : ياسيدي . وهاي ورقة مكتوبة بخطكم فيها امر الي أقطع روسهم .

الملك : هات تاشوف . (ياخذ الورقة)

الملك : (يقرأ) اشي هالورقسة وهالكذب ... هيه وهاي ورقتك شوف اش صار فيها (يمزقها)

الوزير : ياويلي ... انخرب بيتي ...

الملك : شوف يزير . من هون لأربعين يوم حصلت كراكوز وعيواظ حصلتهم ...

الوزير : وان ماحصلتهم ؟

الملك : بدي أقطع رأسك .

الوزير : العما هدا عندو قطع الراس مثل شربة المي (للملك) يامولاي أبوس اجريكم اي منين بدي اجيبهم هدول ماتوا ، قطعنا راسهم .

الملك : بدي اقطع راسك .

الوزير : ياسيدي ، أستعطفكم ، استرحمكم .

الملك : بلا حكي بلا روح حوش عليهم .

الوزير : طيب ... طيب ... (ينسحب وهو يتراجع القهقرى)

(تطفأ الأنوار ثانية ، ثم تضاء ، يظهر الوزير لوحده . يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو في حزن عظيم)

الوزير : لاحول ولا قوة الا بالله على هذا المصاب العظيم ، اى قلنا له بوقتهـــا لاتقتلهم لانو بعرف عقلك بدك تغيروا وتقلي جيبهم ، ليش قلتلي اقتلهم . وهلق من وين بدي اخلق لك يام (يضرب كفا بكف) لاحـــــول ولا قوة الا بالله ، صار اربعين يوم وانا عما بدور من محل لمحل ماخليت شرطة ولا عسكر الا امرتهم بالتفتيش عن اشخاص يشبهوا كراكوز وعيواظ، الدولة كلها مشغولة بالأمر كأنو ماعندنا هم الا هم كراكوز وعيواظ ... الأعداء عمال يستعدوا لحربنا ، المؤامرات من الداخل ضدنا ، الشعب عما يتذمر الحالة مابتسوى . ونحن دايرين من محل لمحل حـــق نشوف اللي ماتوا (يتوقف) .

كل ما جابوا لي واحد بيشبه كراكوز ملشوف فيه عيب ساعة طويل، ساعه قصير ، ساعة غليظ وبارد ؛ وكلما شفنا واحد بيشبه عيواظ نفس الشغلة ساعة سمين وساعة ضعيف ، حق وغي . . . آخ . . . آخ . . . يا حيف عليك يا وزير . . . انت اللي كنت دائماً تقطع روس الناس بدون محاكمة ولا رحمة ولا شفقة هلق اجا دورك ، انت اللي كنت تحلم تصير ملك يوم من الأيام وتاخد محل هالملك المجنون ، حتى تحقق أحلامك . . . ليش يعني هوه أحسن مني . . . مملوك هوه . . . وأنا كمان . . . قرعة أبوه ما هي معروفـــة وأنا كمان . . . كلنا في الهوا سوا . . . آخ راحت الاحلام . . . ولك منين بدي أجيب كراكوز وعيواظ .

(يدخل الحارس)

الحارس : سيدي

الوزير : نعم ؟

الحارس : في الباب الشيخ عبد الله الششتري – قدس الله سره

الوزير : هلق وقته هادا كان بدو يجي يعملي مواعظ وخطب . لك قله ماني هون

الحارس : ياسيدي قال جاية منشان كراكوز وعيواظ.

الوزير : ايه اذا كان هيك خليه يدخل قوام

(يخرج الحارس ويدخل الشيخ بدقن بيضاء طويلة ولفة ضخمة)

الشيخ : السلام عليكم.

الوزير : (يهرع ليقبل يد الشيخ) وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته والي معك من الاخبار هاته

الشيخ : الله يرضى عليك يا ابني . اي اش صاير في هالزمان ؟

الوزير : والله مابعرف .. بتعرف انت القصة .

الشيخ : اي نعم سمعتها .. وايش ساويت ؟

الوزير : اي ايش بــدي ساوي ، والله ماخليت انسان في المملكة الا جبته حتى اشوف اذا في حدا بيشبه كراكوز وعيواظ .. مصيبة كبيرة شاونبدي اخلص منها ؟

الشيخ : لاتخاف ... كل شيء اله نهاية .

الوزير : صحيح بس تكون نهايتها على خير (يلمس على رقبته)

الشيخ : انا من يومين قبل ما أنام قريت وبيتت استخارة ونمت .

الوزير : أي واش شفت .

الشيخ : شفت انو لازم أعمل كل جهدي لحتى أخلصك من هالورطة .

الوزير : عظيم بس شلون ؟

الشيخ : لاتهتم . أنت قول للملك انو يمهلك أربع أيام وأنا بدي اجيبــله كراكوز وعيواظ .

الوزير : دخيلك ابوس ايديك . والله انت أعظم شيخ في هالمملكة كلها ..

الشيخ : ياسيدي بعد مافقت اخذت قطعة من الجلد ، جلد الجمل ، وحيت بالرحمن وقصيتها قامت طلعت شنتين ... واحدة على صورة عيواظ .

الوزير : جلود ؟!

الشيخ : نعم جلود ؟

الوزير : أي شلون بدنا نعمل حتى نقنع الملك.

الشيخ : انت ماعليك في اليوم الموعود بتقلو ياسيدي ومولاي تميت عما افتش عن

كراكوز وعيواظ في المملكة كلها حتى وجدتهم هربانين طافشين في الجبال. وبألف يازور قنعتهم وأمنتهم ووجبتهم ... بّا هن خجلانين منــك وما بحسنو يطلعو قدامك منشان هاي رايحين نحط شاشة يلعبوا من وراها هـدا بعد أمرك .

(تطفأ الانوار ثم تضاء ، فيظهر الملك مع حاشيته . أمامه يقف الوزير في زاوية من المسرح نصبت خيمة كراكوز مضاءة) .

الملك : هاي مضت المهلة الأربعة أيام هات لنشوف كراكوز وعيواظ .

الوزير : ياسيدي ومولاي قيت عما افتش عن كراكوز وعيواظ في المملكة كلها حتى وجدتهم هربانين طافشين في الجبال ، وبألف يازور قنعتهم وأمنتهم وجبتهم .. بّا هن خجلانين منك وما بحسنو يطلعوا قدامك منشان هاي حطينا هالشاشة بيلعبوا من وراها اذا سمحتوا وامرتوا يا مولاي .

الملك : (فرحاً) .. عظيم ... عظيم جداً ياوزير ... هات لنشــوف لنتسلى بكراكوز وعيواظ (يندس الشيخ الششتري وراء الشاشة مع الألعاب. تطفأ الأنوار ويبدأ الشيخ بفصل من كراكوز وعيواظ ونحن لفتــة فيظهر الشيخ من وراء الخيمة فيراه السلطان فيصيح) .

الملك : هادا الشيخ الششتري ! مالك ياشيخ كأنك عما تآنس كراكوز وعيواظ بالكــلام ؟

الشيخ : يامك الزمان . كراكوز وعيواظ قتلتــام وراحوا كأمس مضى . وأنا خفت على شأنك حتى لايروح ينكسر امام الوزراء والأعيان ، عــدت صورتلك يام من جلد وجبتهم لقدامك .

الملك : (بغضب) ياوزير !

الوزير : نعم يامولاي

الملك : نفذ الأمر

الوزير : لابــد ؟

الملك : لابــد

الشيخ : امهلني ياملك حتى اطلع برات الخيمة واقول كلمتين وبعدها اقتلني .

(يخرج خارج الخيمة ويمسك كراكوزاً بيد وعيواظاً بيد وينشد :)

تأملت امن الدهر سراً وجهــرة — وقضيت عمري بين حسرة وعِبْرة

ورأيت خيال الظل اكبر عبرة — لمن كان في علم الحقيقــة رائي

شخوص وأشبــاح تمر وتنقضي — الكــل يفــنى والمحــرك باقي

الملك : (بتأثر واضح) مادام هيك ! عفيت عنك .

الشيخ : طالما عفيت عني أنا لازم اخترع من هالجلود كراكوز وعيواظ يطالعوا صنعة فنية يأكلوا منها هالفقرا .

القصّة

صـــورة

عبد الله عبد

— دنيا ! لماذا أنت واقفة هناك ؟ هات العربة وتعالي يابنت .

ودفعت دنيا عربة طفل فارغة في مسلك من مسالك الحديقة حتى صارت بمحاذاة العائلة التي استقرت فوق أرض معشوشبة . كانت العـــائلة قد جاءت منذ قليل الى الحديقة العامة بعد الانتهاء من صلاة « أحد الشعانين » لأخذ صور تذكارية . وكانت الصورة الاولى قد اخذت قرب شجرة ورد وبدأ الاستعداد لأخذ الصورة الثانية .

وقالت السيدة مرة أخرى :

— دنيا ! تعالي خذي برنس سوسو وضعيه في العربة .

وتركت دينا العربة واتجهت صوب الجماعة . كانت الجماعة مؤلفة من خمسة اشخاص . رجل بيده جهاز تصوير ، وامرأة تحمل طفلاً في سنته الاولى

وصبي وفتاة في يد كل منها سعفة مزينة بالزهور . وكان الجميع في أبهى حللهم .

وتناولت دنيا البرنس من المرأة وطوته بعناية ، ثم أراحته بحرص على ساعدها . وعادت الى اتخاذ مكانها بالقرب من العربة ، والبرنس لايزال يرتاح على ساعدها .

قال الرجل الذي بيده جهاز التصوير :

— لنأخذ صورة جماعية أخرى .

فتصدرت الأم على اليمين تحمل رضيعها ، ثم تلاها الصبي فالفتاة . وقف الزوج في مقابل الاسرة وأغلق عيناً ، ونظر بالعين الأخرى في جهاز التصوير مختبراً وضع الأسرة من هناك ، ثم تقدم خطوتين وانحرف قليلا الى اليسار .

اثناء ذلك كان الصبي والفتاة الواقفان عن يمين السيدة يتبادلان النظرات الحافلة مع دنيا ويبتسمان فخورين ، فأجابت دنيا على ابتسامتهما بالابتسام .

قال الزوج :

— عندما اعد حتى ثلاث سألتقط الصورة .. حسناً ! استعدوا .

واستعد الصبي والفتاة وتشبثا بسعفتيهما المزينتين بالزهور ودفعاها الى الأمام كأنهما يخشيان ألا تظهرا في الصورة . ونظرا في جد إلى جهاز التصوير .

وعد الزوج

— واحد .. اثنان .. ثلاثة .. طق

والتقط الصورة .

وقتل الزوج البكرة وهيأ صورة . قال للسيدة :

— الآن جاء دورك .

وتبادلا موضعيهما . فأخذ الطفل منها واحتل مكانها بالقرب من الوالدين ، وأخذت الجهاز منه واحتلت مكانه .

مرة أخرى نظر الصبي والفتاة الى دنيا الواقفة عند العربة وبسما لها فابتسمت لهما ايضاً كأنها تقول « تشجعا . التصوير شيء جميل » .

وعدت الزوجة ثلاثاً ثم التقطت الصورة . قال الزوج :

ـ والآن لنأخذ صوراً فردية للأولاد . هل نغير المكان ؟

فوافقت الزوجة على تغيير المكان . وقالت موجهة الكلام الى الفتاة الواقفة عند العربة :

ـ دنيا تعالي خذي سترتي . ولكن عجباً . أمازال البرنس على يدك ؟! هل أنت مسطولة يابنت ؟

وانتفضت دنيا كأنها كانت نائمة فأوقظت من نومها ، أو كأنها كانت تحلم فأوقظت من حلمها . وغمغمت معتذرة :

ـ قلت ربما طلبتيه مرة أخرى .

وتقدمت دنيا في الحال فتناولت سترة السيدة وعادت الى العربة . في هذه الاثناء تحركت الاسرة فوق الارض المعشوشبة لتغيير موضعها مما اضطر دنيا الى دفع العربة ومسايرة الجماعة . اختارت السيدة موضعاً وقالت :

ـ هذا مكان جيد .

فوافق الرجل قائلاً :

ـ حقاً انه مكان جيد

وتوقفت الجماعة فتوقفت دنيا . وصاحت السيدة :

ـ دنيا

فقال الرجل .

– ماذا تريدين منها ؟

فقالت السيدة :

– لتأت إلى هنا تفعل أي شيء .. لتحمل الطفل .. لماذا هي واقفة هناك ؟ أنا لم اعتد على حمل طفل لمدة طويلة . لقد تعبت يداي .

قال الصبي :

– دنيا تعالي خذي شعنينتي . أريد صورة لاأحمل فيها شعنيناً .

وقالت الفتاة الأصغر سناً وقد غارت من أخيها .

– وأنا اريد صورة بلا شعانين

وتقدمت دنيا لتأخذ الشعنينتين كما طلب الصبي والفتاة . فعقبت السيدة .

– حسناً ولكن ليس قبل أن نأخذ لكما صورة أخرى بالشعانين .

وتهيأ الصبي والفتاة أمام جهاز التصوير ، واعطت السيدة الى دنيا الطفل الذي كانت تحمله ، ثم قرفصت وشرعت تصلح هندام الولدين . اقترب الصبي من رأس أمه وقبلها في خدها وقال :

– احبك يا ماما

فقبلته امه وقالت :

– وانا احبك ياحبيبي

وقالت الفتاة .

– وانا احبك يا ماما

فقالت الام :

– وانا احبك ايضاً

حين اطمأنت الام الى هندام ولديها تراجعت عن ميدان الصورة ولكنها قالت فجأة :

ــ دنيا لماذا أنت واقفة هناك ؟ ابتعدي عن عدسة التصوير يابنت .

وانصاعت دنيا الى أمر السيدة فتراجعت بارتباك بعد أن تم التقاط الصورة

قالت السيدة :

ــ دنيا ! خذي الشعنينتين الى العربة .

فأومأت الفتاة برأسها الى الطفل الذي تحمله على ذراعها . فقالت السيدة :

ــ هيا ضعي سوسو في العربة أولاً ، ثم احملي الشعنينتين .

ــ ومضت دنيا الى العربة فوضعت الطفل فيها بعناية فائقة . ثم عادت فحملت الشعنينتين ووضعتها خلف الطفل .

قال الرجل :

ــ والآن لنأخذ صورة جماعية جديدة . ان آلتنا تصور أوتوماتيكياً .

وفي الحال فتل بكرة الجهاز ووضعه على حامل ، ثم أطبق عينه اليسرى ونظر باليمنى الى أسرته من خلال ثقب الجهاز . ثم اتجه الى الجماعة وأصلح أوضاع أفرادها . قال :

ــ أنا سيكون مكاني هنا .

ثم الى زوجته :

ــ أنت ستكونين في الطرف . والاولاد في الوسط . وأنا في الطرف الآخر .

وحانت من السيدة التفاتة الى العربة فهتفت :

ــ ولكن ماذا بشأن سوسو ؟! لقد كدنا ننسى سوسو .

والى زوجها :

ـ ما رأيك ان نأخذ له صورة وهو في العربة ؟

فوافق الرجل ونقلت عربة الطفل الى الارض المعشوشبة ، فوضعت في ساحة العدسة مما أدخل تعديلا طفيفاً على ترتيب الجماعة السابق ، اذ وضعت العربة حذاء الأم .

أما دنيا فقد بقيت وحدها بعد نقل العربة تراقب عملية التصوير ،ولكن بينما الرجل يعيد النظر في وضع الأسرة والآلة للمرة الأخيرة ، هرولت دنيا باتجاه الجماعة ، وبالتحديد نحو الفتاة تماما .

فقالت السيدة باندهاش :

ـ لكن ماذا بك يادنيا ؟!

فقالت دينا وهي لا تزال ماضية بتصميم نحو هدفها .

ـ ياقة ياسمين مقلوبة ، اريد ان أصلح ياقة ياسمين .

ومضت فأصلحت ياقة ياسمين ، ثم سوت بكفها شعر الصبي وتراجعت الى الوراء . وانتبهت الأسرة بكل جد ورزانة الى جهاز التصوير الذي أخذت اشاراته تتلاحق معلنة عن بدء تسجيل الصورة . غير أن الأم أبت إلا ان تفرض رعايتها على طفلها حتى في الرسم ، فمدت يدها ووضعتها على مدفع العربة ، ولكن في الوقت الذي لامست فيه يدها المدفع ، أعلن الجهاز عن انتهاء التسجيل ، فصفقت الأم بيديها الاثنتين أسفاً ، وألحت باللائمة على نفسها لانها لم تبادر الى فعل ما فعلت قبل ثانية من الزمن ، ولم يستطع أحد ان يجزم فيما اذا كانت العدسة قد التقطت حركة يد الأم الأخيرة .

وبينما الرجل والمرأة يستعيدان الحادثة ويتأرجحان بين اثبات الالتقاط

ونفيه وهم يتأهبون لمغادرة المكان ، اقترب الصبي من أبيه وشد سترته . فالتفت الأب اليه . وقال :

– بابا صور دنيا .. هي تحب الصور .. انت لم تصورها .

فضرب الأب على جبينه وقال باستنكار :

– حقاً أنا لم أصورها !

وقالت الام :

– عجباً كيف نسيناها ؟!

ثم الى زوجها بحمية اكثر :

– انظر في الجهاز . ربما كان هناك مجال لصورة أخرى

واستشار الرجل الجهاز بحماسة . وعضت دنيا طرف اصبعها باستحياء إذ أنها أصبحت فجأة محط اهتمام الاسرة .

قال الصبي لدنيا :

– دنيا ! أليست صورتي أحلى من صورة ياسمين ؟

وقالت ياسمين :

– بل صورتي هي الأحلى.

فقالت دنيا وقد اتجه نصف اهتمامها الى الجهاز وحامله :

– صورتك حلوة وصورتها حلوة .

واستحثت المرأة الرجل فأعلن هذا بانتصار :

– نعم هناك مجال لصورة أخيرة .

وانتقل هذا الانتصار من الرجل الى الصبي صاحب الفكرة في الأصل ، وأبى إلا أن ينسب الفضل الأكبر لنفسه .

– دنيا ! أنا قلت لهم أن يصوروك ، أليس كذلك ؟

فقالت له دنيا بمثل عفويته إذ كانت في مثل سنه تقريباً :

– نعم انت قلت لهم .

واستدعيت دنيا على عجل الى ميدان التصوير .لم تكن ثيابها جديدة كالآخرين ولكنها كانت نظيفة . ووقفت بارتباك مهورة الانفاس لاتدري ماذا يتعين عليها ان تتصرف ، أو ماذا تفعل بيديها الزائدتين امام جهاز التصوير . مرة أرختهما على جنبيها ومرة شبكتهما على بطنها . ولكن سرعان ماجاءها الصبي بزهرة حمراء وقال لها .

– دنيا امسكي هذه الزهرة .

وامسكت دنيا بالزهرة بكلتا يديها فأخرجتها من ورطتها .

قال الرجل :

– عندما اعد حتى ثلاث انظري الى الآلة ، وعندها سألتقط الصورة .

وتهيأت دنيا للتصوير بكل اعصابها فاستنفرت كل عضو على اعضائها حتى القلب . وعدّ الرجل .

– واحد . .

وفكرت أن تلتفت الى جنبيها عساها أن تحتاج الى تعديل وضعها . ولكن كيف السبيل الى ذلك وقد بدأ العد . وأفلتت منها عيناها فجرتا بالاتجاه المقابل نحو الصبي فالفتاة فالسيدة ورأت الجميع يبتسمون لها فابتسمت ،ثم عادت فحملت عينيها إلى الآلة . وتابع الرجل .

– . . اثنان . ثلاثة

حين اعلن الرجل عن انتهاء التصوير نظرت دنيا الى يمينها ويسارها غير أنها لم تجد من تقول له :

ــ صورتي أحسن من صورتك .

ونظرت الى يديها فوجدت الزهرة ، فعرفت حينئذ انها كانت وحيدة في الصورة ، وأنه لم يكن أحد برفقتها إلا زهرتها الحمراء .

الذنب

جورج سالم

لم يكن ذاك امراً مفاجئاً ولم يكن ابن يومه كذلك ، فمنذ زمن بعيد لايستطيع تحديده ، وهذا الشعور يلتمس طريقه الى الظهور والافصاح، ويتفاقم في نفسه ببطء ، شيئاً بعد شيء ، ويوماً بعد يوم ، فيحاول أن يبعده عنه وان يصرفه عن ذهنه صرفاً هادئاً مرة، عنيفاً مرة أخرى وكان يطمئن في بعض الاحيان الى ركونه وابتعاده مدة عن ساحة شعوره ، ولكنه في كل مرة كان يفاجأ به يعود الى الظهور في وقت لايتوقعه ، بينما هو يعمل او يسير او يحاول ان ينام .

في ذاك الصباح كان هذا الشعور قد تصاعد في نفسه وتصاعد حتى بلغ حدا لم يعد باستطاعته أن يتحمله ، كان أول ماخطر له أن يفعله أن يتوجه الى مديره المباشر ، وكان هذا التصرف أيسر مايمكن أن يقوم به ، واستقبله المدير بابتسامة عريضة فيها ترحيب وعطف ، وخيل الى المدير أول الأمر ، أن هـــذا

انما جاءه مستفسراً عن شؤون العمل ، ولكنه أدرك ، بعد دقائق ، ان زيارته لم تكن لها أية علاقة بالعمل وسيره ، والموظفين وما يقومون به . عند ذاك دق المدير الجرس وطلب فنجانين من القهوة ، اذ ادرك ان الموظف هذا بحاجة الى الى شيء ، فآثر رحابة الصدر وهدوء الأعصاب ، ولا سيما أن تلك كانت اول مرة يزوره فيها الموظف ، فقد كان من عادته ان يرسل اليه الأوراق وما يتعلق بالعمل مع الآذن ليوقعها ، ويتلقى منـــه التعليمات بالهاتف ، وكثيراً ما كانا يجتمعان ، ولكن على نطاق واسع مع سائر الموظفين في جلسات تتعلق بالعمل وحسن سيره ، وكثيراً ما كانا يلتقيان على سلم المبنى أو في الممر ، فيتبادلان بعض الكلمات العابرة ليس غير .

بعد أن رشف فنجان القهوة ووضعه على الطاولة بجانبه امتدت بينهما فترة صمت ثقيلة من هذه الفترات التي لا يعرف فيها الانسان ماذا ينبغي أن يقول او يفعل . ومن أين يبدأ وكيف يبدأ ، وشعر ان المدير بدأ يتحرك في كرسيه ، فاستجمع شجاعته ، وتوجه بأعماقه اليه محدقاً في وجهه وقال :

ـ سيدي المدير ، ان وضعي لسيء .

تنفس المدير الصعداء ، وأيقن آخر الأمر أن حدسه كان صحيحاً وأن ثمة مشكلة يعاني منها هـــذا الموظف الهادىء ، فعقد العزم على مساعدته ، مقدراً أن هذا من واجبه وشعر اليوم ، وربما لأول مرة بأنه يسمو فوق مهمات العمل وشؤونه ليساعد انساناً جاء اليه . وسرت فيه نفحة من كبرياء ، فمجيء الموظف اليه يعني أنه لم يجد أفضل منه ملجأ ولا أحسن منه نصيراً ، فأقبل عليه بمجامع نفسه وكل حواسه وفكره وسأله :

ـ ومم تشكو ، قل لي ، ولاشك في أني سأسعى الى مساعدتك .

وبسرعة راح المدير يفترض بعض الافتراضات ، قال في نفســـه لعله متضايق من بعض الموظفين ، أو لعله بحاجة الى إجازة ، أو ربما كان قد مل من العمل ، ومن اليسير أن أبحث له عن عمل أقل ارهاقاً ، والتفت اليه يسأله :

ـ ما الذي يجعل وضعك سيئاً ؟

استجمع شجاعتـه كلها وقال له :

ـ أشعر أنني مذنب ، وأن ذنبي لكبير !

وبوغت المدير بهذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه ، والحقيقة أنه لم يفهمه ، فمدارك محدودة بالعمل واطار العمل وحسن سيره ، وهو يعرف أن هذا الموظف يقوم بعمله كأحسن مايقوم به موظف ، فقال له :

ـ أما بالنسبة الينا فأنت لست بمذنب ولا غبار عليك .

ثم أضاف :

ـ واذا كنت تريد ان تنتقل الى عمل آخر فباستطاعتي ان أيسر لك ذلك ، وان كنت تشكو من بعض الموظفين فأنا قادر على نقلهم او معاقبتهم .

ولم ينتظر أن يتم المدير كلامه فقاطعه وقال :

ـ لا ، لا ، لادخل لهـذا كله في الموضوع ، قلت لك انني اشعر بأنني مذنب وأريد أن أحال الى المحكمة !

بهت المدير ودفعه عجزه عن الفهم الى ان يقول :

ـ لسنا نراك كذلك ، ولو انك كنت مذنباً لأحلناك الى التفتيش او الى مجلس التـــأديب . فنحن نراقب الموظفين مراقبة دقيقة ونحصي حركاتهم وسكناتهم وهذا كنه عملنا ، ولما انتظرنا ان تعلمنا أنت بذلك . ما عليك الان تعود الى عملك بما عرف عنك من همة ونشاط ، فالتقارير التي لدينا لا تشير الى

أنك ارتكبت اي ذنب تحاسب عليه ، بل على العكس ، فكل مابين أيدينا يشير الى انك موظف تتمتع بضمير مسلكي ممتاز .

عند ذاك أدرك أن كل حوار بينه وبين مديره ضرب من العبث ، فكل منهما في واد ، ولا سبيل الى التقائهما ، فقام فصافح المدير الذي ظهر الآن وكأنه يستعجل انهاء هذه الزيارة غير المجدية ، وخرج الموظف ، وسرعان ما استغرق المدير في دوامة الهواتف والأوراق .

ليس يدري من أشار عليه ان يقصد طبيباً نفسياً ، فذهب بعد ظهر احد الأيام الى عيادة طبيب مشهور . وظل يتردد على عيادته أسابيع عدة أجرى له خلالها كل ما يعرفه من شؤون البحث والكشف النفسي ، وأخضعه لسلسلة من الروائز والتجارب النفسية ، وبحث في العقد التي يحتمل انه مصاب بها ، كذلك حاول دراسة الكبت الجنسي عنده ، واختبره بجميع الأسئلة التي تعلمها في الجامعة ولكنه نفض يديه منه آخر الأمر وقال له :

– لاشك عندي بعد هذه الفحوص الطويلة التي قمت بها انك انسان سوي ، أما شعورك بالذنب فلست ادري له سببا ، وأغرب مالاحظته عليك ، أنك ، خلافاً لكل الناس ، لا تريد أن تخفي هذا الذنب بل تريد ان تحاسب وتحاكم عليه ، ولولا هذه الاختبارات الطويلة لاعتقدت أنك مصاب بمرض تعذيب الذات ، ولكنني اؤكد لك انك سوي ، وليس في عقلك اي اضطراب اوخلل ، ولم أعالج مريضاً قط يمتاز بمثل هذه الصحة النفسية المتكاملة فلا عقد ولا كبت ولاشعور بالنقص او الحرمان لديك ، ويخيل إلي أن عليك أن تقوم بنزهات متصلة لتنسى هذا الشعور وأنا كفيل بذلك .

وادرك الموظف للمرة الثانية ان هذا الطبيب لا يكاد يختلف كثيراً عن المدير وشعر أنه يضيع وقته سدى مع هؤلاء الناس .

* * *

كانت جرأة كبيرة منه ان يتوجه بعد ذلك الى قصر العدل ، فقد قدر أن خلاصه انما يكمن هنـــاك . ألا يساق المجرمون ومرتكبو الاثام والجنح والذنوب الى قصر العدل ؟ وهكذا مضى في أحد الأيام إلى قصر العدل حاملا معه هويته ، وأقام ينتظر ، واذا بالمنادي ينادي على المتهمين والمحامين والشهود فيدخلون قاعة المحكمة ثم يخرجون ليدخل فوج آخر ، واستمرت الحال على هذا النحو حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، فارفضت الجلسة وأوشك القاضي ان يقوم لينصرف ، حينذاك ولج الرجل الى القاعة وتقدم نحو القاضي وقال له :

ـ سيدي القاضي ، أريد أن تحاكمني !

فابتسم القاضي ابتسامة فيها كثير من الوقار والرزانة ، وقال له :

ـ ومن أقام عليك الدعوى ؟

دهش الرجل وقال له :

ـ لم يقم أحـــد علي أية دعوى ، ولكنني أشعر أنني مذنب ولابد من محاكمتي . فهز القاضي رأسه وقال :

ـ هذا مخالف للقوانين .

واضاف وهو يجمع اوراقه ويضعها في حقيبته الجلدية الكبيرة :

ـ اسمع يا هذا ، لابد لنا لـكي نحاكم الانسان من ان يحرك عليه احد الدعوى ، دائن او غريم او مـدع ، او النيابة العامة او مصلحة من المصالح او

الشرطة ... وأما أن يتقدم انسان الينا طالبا ان نحاكمه فهذا ليس من اختصاصنا وليس في قوانيننا .

ثم قال له وهو يزرر حقيبته :

ـ لا تضيع وقتك وانصرف الى عملك ، وحين ستحال الينا فثق اننا سننظر في قضيتك بعدالة كشأننا مع سواك من المواطنين .

يبدو ان هذا الكلام لم يعجب الرجل ولم يقنعه ، فخرج مغضبا ناقما على هذه القوانين ، وراح في الأيام التالية يتنقل من محكمة الى اخرى ، وكثيراً ما أشفق عليه الحكام والقضاة ولم يطردوه فوراً ، فكان بعضهم يسأله : هـل سرقت مال أحد ، او هل قتلت رجلا او دهست طفلا او خالفت الأنظمة ، او هل تريد أن تطلق زوجتك ، وكان يجيبهم في كل حال بأنه لم يفعل شيئاً من ذلك البتة ، وانتقل على هذا النحو من محكمة البداية الى محكمة الجزاء الى المحاكم الجنائية الشرعية ، ثم قصد محاكم الاستئناف كلها ولكنه لم يظفر بطائل، وتلاغط القضاة في مجالسهم الخاصة حول هـذه الظاهرة الغريبة الفريدة التي لم يكن لهم بها عهد .

وتطوع احد القضاة ، وكان قريباً من وزير العدل ان يتصل به ليدرس هذه الظاهرة العجيبة بعد ان تأكد من ان الرجل سوي العقل غير مختل الشعور ، وفعلا فقد ابدى الوزير اهتماماً بالغاً بهذا الموضوع الخطير ، ولكنه ادرك ان كل المحاكم في قصر العدل لا تستطيع ان تنظر في امر هذا الرجل . لذلك ، وبعد مشاورات طويلة ، قرر تشكيل محكمة خاصة استثنائية مؤلفة من ثلاثـة قضاة عرفوا كلهم بالعلم الواسع والخبرة الطويلة والأخلاق الرفيعة والنزاهة في العدالة .

وسر الرجل سروراً بالغاً حين أنبؤوه ان محكمة خاصة قـد شكلت لمحاكمته وراح ينتظر موعد المحاكمة على أحر من الجمر .

في اليوم المحدد للمحاكمة نودي عليه فهب سريعاً وهو موقن أن الفرج قد جاء .

قال له رئيس القضاة بعد أن ألقى عليه الأسئلة المعهودة عن اسمه وعمره وأبيه وأمه وعمله :

ـ والان ، هل تشعر حقاً أنك مذنب ؟

أجاب الرجل بثبات :

ـ نعم .

قال له رئيس القضاة :

ـ هل لك ان تخبر أعضاء المحكمة الموقرة عن طبيعة الذنب الذي ارتكبته؟

قال الرجل :

ـ الحق يا سيدي انني لم ارتكب اثما ولكنني مع ذلك اشعر أنني مذنب.

قال له احد القضاة :

ـ وما الذنب الذي تشعر به ؟

تردد الرجل هنيهة ثم قال بصوت أجش كأنه منبعث من أغوار الأبدية ، ولم يبد صوته صوت انسان بل صوت جوقة من الناس يقول :

ـ اشعر يا سيدي القاضي انني حفيد مروان بن محمد .

فهمهم رئيس القضاة :

ـ على يد هذا سقطت الدولة الأموية .

ـ وانني حفيد المستعصم بالله .

فهز القاضي الآخر رأسه في حسرة :
ـ وبهذا صفيت الخلافة العباسية .
ـ وانني حفيد محمد أبي عبد الله .
وتبادل القضاة النظرات :
ـ آخر الحكام في الأندلس .

ـ .. وان هذا الشعور بأحضرات القضاة هو الذي يقض مضجعي ويكاد يأخذ بخناقي ، وان هذا الذنب يمثل في اعماق وجداني ليل نهار ، ويؤلمني حتى الموت شعوري به ، وأنا على استعداد لأن أتحمل كل عقوبة ، حتى عقوبة الاعـــدام لأكفر عن هذا الذنب ..

نظر القضاة الثلاثة بعضهم الى بعض ، ثم وجموا لحظات ، بدت له كأنها دهر طويل ، ثم اشاروا اليه ان يبتعد الى آخر القاعة ، وأمروا من في القاعة أن يخرجوا منها ، ودارت بينهم مناقشة طويلة حادة لم يتبين الرجـل الواقف في آخر القاعة الكبيرة مايقولون لبعد المسافة وخفوت اصواتهم ، ولكنه قدّر انهم كانوا يتناقشون حول مدى اعتبار هذا الذنب ذنباً يستوجب العقاب .

بعد ساعات ثلاث من المناقشة ، احتد فيها كل منهم بدوره ، استدعـاه رئيس القضاة بحركة من يده وقال له :

ـ لقد استوعبنا موضوع ذنبك وفهمناه ، على غرابته ، وسنصدر حكمنا بعد اسبوع في مثل هذه السـاعة ، وفي هذه القاعة ذاتها .

مرّ هذا القول عن الرجل ، ومضى الى عمله يترقب الساعة التي وعد بها ويحث الزمن على الاسراع .

* * *

اقبل الرجل في الموعد المضروب فوجـــد قاعة المحكمة غاصة بالقضاة والمحامين ، ثم جاءت هيئة المحكمة واعلن افتتاح الجلسة ، ونودي عليه فلبى النداء بسرعة كبيرة .

وقف رئيس القضاة فوقف كل من في القاعة وقرأ الحكم الذي كان مكتوباً على ورقة طويلة ، فبدأ بالحيثيات المعروفة ومر عليها بسرعة وحين انتهى الى الحكم تمهل وهو يقرأ :

« ... ولقد نظرت المحكمة الخاصة المشكلة بناء على القرار الوزاري في أمر المذنب المشار اليه وبعد أن استمعت الى افادته ودرست قضيته في عناية ودقة بالغتين رأت أن ذنبه فادح خطير ، ولكن لما كان هـذا الذنب ذا صفة عمومية فقد قررت بالاجماع منع محاكمته قراراً غير قابل للاستئناف او النقض وبلغته اياه وجاهياً » .

وارفضت الجلسة وعاد كل من حيث جاء .

عن وضاح اليمن والحب والموت (*)

عبد الوهاب البياتي
القاهرة

(١)

يصعد في مدائن السحر ومن كهوفها : وضاح (١)
متوجاً بقمر الموت ونار ليزك يسقط في الصحراء

(*) إلى ابراهيم منصور الانسان والصديق.

(١) وضاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه . واسمه عبدالرحمن بن اسماعيل . مات أبوه وهو طفل . كان وضاح اليمن يرد مواسم العرب مقنعاً يستر وجهه خوفاً من العين وحذراً على نفسه من النساء لجماله. وكان يهوى امرأة من أهل اليمن يقال لها « روضة ». فلما اشتهر أمره معها خطبها فلم يزوّجها وزوجت غيره ، فكثت مدة طويلة. ثم أتاه رجل من بلدها فأسر اليه شيئاً فبكى ، فقال له أصحابه : مالك تبكي؟ وما خبرك؟ فقال : أخبرني هذا ان روضة قد جذمت وانه رآها قد ألقيت مع المجذومين .

وروي : ان أم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك قد عشقت وضاحاً ، فكانت ترسل اليه ، فيدخل اليها ويقيم عندها ، فاذا خافت وارته في صندوق وأقفلت عليه ، فأهدي للوليد بن عبد الملك جوهر له قيمته فأعجبه واستحسنه ، فدعا خادماً له فبعث=

تحمله الى الشآم عندليباً برتقالياً مع القوافل : السعلاة

وريشة حمراء

ينفخها الساحر في الهواء

يكتب فيها رقية لسيدات مدن الرياح

وكلمات الحجر الساقط في الآبار

ورقصات النار .

ينفخها في مجلس الخليفة٭

=به معه الى أم البنين وقال : قل لها ان هذا الجوهر أعجبني فآثرتك به . فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها ، فأدخلته الصندوق وهو يرى ، فأدى اليها رسالة الوليد ، ودفع اليها الجوهر ، ثم قال : يا مولاتي هبيني منه حجراً ؛ فقالت : لا .. فرجع الى الوليد فأخبره ، ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط ؛ وقد وصف له الخادم الصندوق الذي أدخلته فيه ، فجلس عليه ثم قال لها . يا أم البنين ما أحب اليك هذا البيت من بين بيوتك ! فلم تختارينه ؟ فقالت : اجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجي كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب . فقال لها هبي لي صندوقاً من هذه الصناديق . قالت : كلها لك يا أمير المؤمنين . قال : لا أريدها كلها وانما أريد واحداً منها . فقالت له : خذ أيها شئت . قال هذا الذي جلست عليه ـ قالت : خذه يا أمير المؤمنين . فدعا الخدم وأمرهم بحمله . فحمله حتى انتهى به الى مجلسه فوضعه فيه . ثم دعا عبيداً له فأمرهم فحفروا بئراً في المجلس عميقة ... ثم دعا بالصندوق فقال : يا هذا ، انه بلغنا شيء ان كان حقاً فقد دفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلاً فانا دفنا الخشب وما أهون ذلك . ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ، وجلس الوليد عليه . ثم ما رئي بعد ذلك اليوم لوضاح أثر في الدنيا - وروي : ما رأت أم البنين لذلك أثراً في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما .

من كتاب « الاغاني » لأبي الفرج الأصفهاني

« الجزء الخامس »

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة

فتستحيل تارة قصيدة
وتارة لؤلؤة عذراء
تسقط عند قدميْ وضاح
يحملها الى السرير امرأة تضج بالأهواء
تمارس الحب مع الليل وضوء القمر المجنون
تهذي ، تغني ، تنتهي من حيث لاتبدأ ، تستعيد ...
تعود عذراء على سريرها خجلى من الليل وضوء القمر المجنون
تفتح عينيها على رماد نار نيزك يسقط في الصحراء
وريشة حمراء
ينفخها الساحر في الهواء
فتستحيل تارة غزالة
قرونها من ذهب وتارةً كاهنةً تمارس الغواية
ولعبة النهاية
في حرم الخليفة
وليله المسكون بالأشباح والملالة

(٢)

لم أجد الخلاص في الحب ولكني وجدت الله

(٣)

قبلتُ مولاتي على سجادة النور وغنيتُ لها موّال
وهبتها شمس بخارى وحقول القمح في العراق
وقمر الأطلس والربيع في أرواد

منحتها عرش سليمان ونار الليل في الصحراء
وذهب الأمواج في البحار .
طبعت فوق فمها حبي لكل ساحرات العالم - النساء
وقبل العشاق
بذرت في أحشائها طفلاً من الشعب ومن سلالة العنقاء

(٤)

من أين جاءت هذه الأشباح ؟
وأنت في سريرها تنام ياوضاح
لعلها نوافذ القصر ، لعل حرس الأسوار
لم يغلقوا الأبواب

(٥)

رأيت في نومي على نهديك نهر الموت
يشق مجراه بلحم الصمت
وكلب صيد ينهش النهدين
وطائر السمان
يبدأ في رحيله عبر مدار غربة الانسان في العالم والأشياء
ووجه عبد من عباد القصر
يطل من عيني ومن مرآة هذا الفجر
مقبلاً نهديك في نومي - رأيت العبد
ممددا وعارياً فوق سرير الورد
مبتسماً للغد

(٦)

من أين جاءت هذه الأشباح ؟
وأنت في سريرها تنام يا وضاح
لعله الواشي الذي أراح واستراح
لعله الخليفة
أطلق في أعقابك العبد وكلب الصيد والكابوس

(٧)

من قبل أن يُولَدَ في الكُتُب
وفي الروايات وفي الأشعار
عُطيل كان كائناً موجود
تنهشه عقارب الغيرة ياوضاح
من قبل أن يولد في الكتب
عطيل كان قاتلاً سفاح
لكن ديدمونة
في هذه المرة لن تموت
أنت إذن تموت
أنت إذن تموت

(٨)

عُطَيلُ في عمامة الخليفة
يواجه الجمهور
بسيفه المكسور

(٩)

لم أجد الخلاص في الحب ولكني وجدت الله

(١٠)

متُ على سجادة العشق ولكن لم أمت بالسيف
مت بصندوق وأُلقيت بيمّ الليل
مختنقاً ، مات معي السر ومولاتي على سريرها تداعب الهرة في براءة،
تطرز الاقمار

في بردة الظلام
تروي الى الخليفة
حكاية عن مدن السحر وعن كنوزها الدفينة
ويدرك الصباح ديدمونة

* * *

الصّعاليك

أحمد يوسف داود

١ ـــ وطن للقبيلة

جمدت على كتفي يداك

أخشاك .. معذرة !!

سأبقى خافضاً طرفي الحسير

فلينتفض تمثالك الوحشي ! .. أنت معذب

وانا أعذب فيك .. اقتل فيك ..

منتظراً صراخات النفير

* * *

انت الذي في آخر الصلوات والسفر الطويل

انت الذي في خيبة الكلمات .. والزمن المعطل .. والرحيل !

فليرتعش تمثالك الوحشي من صلواتنا

إنا نفو اليك من خوف إلى خوف ..
جياعاً بانسين
إنا نفو إليك ! نسقط في قرار جحودنا
يبكي عليك الطين مندهشاً
وتسقط راية الفقراء عن قمم السنين

. . .

ارضعتني خوفي فلم أكبر !
وانت بآخر الأشعار شيء للمزاد
ارضعتني خوفي !
دمي وحلٌ ! تعكره نفايات اللغات
والموت في صدأ القبيلة ! والعشاءات ـ الفتات
ورحيلنا أبداً ! !
فهنا النار أو هنا اليقين أو الجنون
جمدت على كتفي يداك
جمدت على كتفي .. على كتفي !
فأين يُسنّ سيفٌ للمعاد ؟!

. . .

يارملة في الشّعب ضارعة
عطشى ولم يعبر بها مطرُ
وخباء جارية ماوعة
من سبيها فوت .. وتنتظر!

إن هفتت النسمات تجفلها :
« يالالغزاة لعلهم حضروا ! »
وانا أمو إلى السرادق ! ما ..
خلى لنا التاريخ والذِكرُ !

* * *

يارملة في الشعب باكية
هاقد رحلنا .. إنهم حضروا !

* * *

انا نقدم من دم كذبٍ شواهدنا
نرثيك أو نبقى بعيداً عن تعابير الدماء
وحرارة الموت انهيار في سواعدنا
والنار تعبر في اللغات فتستحيل الى رماد

* * *

أخشاك .. معذورة !
سأبقى خافضاً طرفي في الحسير
فلينتفض تمثالك الوحشي . أنت معذب
وانا أعذب فيك منتظراً صراخات النفير !

٣ ــ أغنية حب

الحكايات ضيقة
ظلها ــ وحده ــ يجيء به

كوكب الصمت وانكسار الزوايا
وانا دونها أطيل انتظاري

* * *

نازف صوتها .. ثقيل .. ثقيل
والكواسي تنتحي دون شكل
نابض ذلها خلال المرايا
وأنا ساكن تعكو شوقي
ذكريات الأسى وعار السبايا

* * *

بَعْدَ الأحبة !

لم تعد تجدْ لنا داراً ولا البلد الامين
فتوهجي يارملة الشعب استريحي في دفاترنا
إنا نعلق ذكريات خبائك المعشوق في كل الظنون
بَعْدَ الأحبة !

آهِ من شوقي ومن طول الدروب
يارملة الشعب التي سكنت حكايانا .. كضوء مستحيل
نبكيك تحت عباءة السلطان نبكي خاشعين
ليل الجزيرة ضارب في وحشة الأردن .. يابُعد الدروب
والضوء في قمر المحبة مستحيل .. مستحيل !
فتوهجي يارملة ظلت تعفيها الرياح
وخباؤها المقلوع يحمل في نفايات القبيله

وصغيرة عبرت فما تركت سوى هذي الجرح
شيء يعذبنا .. ويبكينا ..
أمانرتد عن ذل الرحيل ؟
أهواك .. معذرة !
يظل الموت والسلطان والكهان في باب السرادق حاشدين

٣ ـ مشاغل قبلية :

خبأت ذلي في العباءات العتيقة !
يادمي ..
أتراك تعرفني وقد كبر السرادق واستطال ؟
وأنا أصف نارق السلطان عنياً ؟
وذلي في العباءة !
وأنام قرب حذائه
وأعز من خوف حذاءه
أتراك تذكر يادمي ؟؟

* * *

قمر الخباء يشيح حلو الطرف عني
وأنا بلا اسم أعبر الدنيا .. بلا شيء يقال !؟
وطني : سرادقه .. نارقه .. وظل حذائه
والضوء في قمر المحبة مستحيل .. مستحيل !؟
لا رملة في الشعب ترقبه ولا السفر الطويل

أتراك تذكر يادمي ؟

. . .

لوظل لي وطن أبايعه
غير احتراقي حين أنحدر
لوكان لي ظل ولي زمن
إلا التذكر .. كنت أنتظر !!
لو كنت أسمع غير صارخة :
« آن الترحل إنهم حضروا »
و أوامر السلطان عاصفة ..
وأنا ..
فلا وجه ولا اثر !!
بَعُدَ الأحبة !

آه من شوقي ومن ألم السنين
والنار تسقط في اللقات فتستكين
والضوء في قمر المحبة مستحيل .. مستحيل
أتراك ترفض يادمي ؟

٤ ـ طريق الى الحياة :

« أقيموا بني أمي صدور مطيكم
فاني إلى قوم سواكم لأميل » (١)
تقطع مابيني وبين تذللي
ومنكفىء عن أرضه يتحول

(١) البيت للشنفري الصعلوك

يمد إلى السلطان كفا هجينة
تشد حمولاً للرحيل وتجدل
إذا عوض السلطان للبيع رأسه
تساكن مذهولاً يُجَر ويخذل
وفي السيف أقدار الشعوب وعزها
إذا ناخ للأشرار في الحي ككل
وديس بأقدام الغزاة تراثها
وحن إلى الترب الدم المتبذّل
كذلك من يلق المنية يلقها
حميداً ! ومن يظفر فذلك أعدل (٢)

(٢) عن بيت لأبي الصعاليك عروة بن الورد .

جمل المحامل

أحمد دحبور

ويا جملَ المحامل ، دربنا شوكُ
وليس بغير ضرسك ، يُطحن الشوكُ
ويا جمل المحامل ، دربنا رمل ، وانت المبحر العدّاء
تهجيناك في كتب القراءة ، في طفولتنا
فكنت سفينةَ الصحراء
ويوم على شفير اليأس كنا ، جئت تضحكُ
كما الاطفال ، من وجع الولادة ،
من نشاف الريق جئتَ

ومن هواء الفقراء

فياجمل الحامل : سر بنا وبإذن وهج الارض لن نشكو
سيسقط بعضنا والشوك محتشدْ ،
سيُحرق بعضنا والشمس حاميةٌ ،
سيُقتل بعضنا والموت رمح في عباب الدرب منشكُ
أجل .. وبإذن وهج الارض لن نشكو

ولكننا متى حان الوصول وعرّشت حيفا على الاجفان
سنُحضر جوعنا الدهري للدمع الحبيس ، ونُفلتُ الاحزانْ
فياجمل الحامل : سرْ بنا ،
ومتى وصلنا قل لنا : إبكوا
فللفرح الكبير دموعُه ، والحزن بعض فواكه الفرحان

ياهنا وام الهنا ياهنيّه[1]
نادوا على ولاد عمّو ييجولو
بالطبول وبالزمور يسحجولو
والخيول المبرشمه يسرجولو
بالهنا وام الهنا ياهنيّه
ولكن ياهنيّة ، ما لأبناء العمومة لم يطلوا بعد
وماللخيل تُسرج ، والطبول تُدق لي عن بُعد
أموت هنا ، ونخبي يشرب الركبان !

---

(١) اغنية فولكلورية فلسطينية تردد في الاعراس

الا لا برأتهم من دمي عمّان
غداً ؟ ماذا يقول الغد ؟

على جبل الحسين أمامهم، ولأجلهم ، حمّلتُ آلافاً من الصلبان.
ولن يجدوا لهم عذراً فما شُبهت حين صُلبت
رسمتُ علامتي بالنار ، مافعلنوا لها ، وتُركتُ للنسيان.
فلم اكفر ، ورحت ادق باب الصمت :
أضاعوني .. وأي فتى أضاع الاهل والخلان
ألا لا برأتهم من دمي عمان
ولن يجدوا لهم عذراً متى ماعُدتُ
فاني اليوم قد بلّغتُ ،
قد بلّغتُ ،
قد بلّغتُ.

التميمة

عبد الكريم الناعم

ايا وجه الطفولة ، ياابتهال الصبح ،
ياعطو البراري آن تأتي الريح بالأمطار ،
ياكأسي ، وياسهوي
وياه‍وامة الايام في بوابة الجزر
ويا ألق التلال الحمر ،
« ياحرشا » يلوح به بريق البحر
تسكنه الشحارير
ويا جفناً حريري السجود .. الهمس

ياطلا ً تاوب على صحاري قيظه الاحلام
تجرحه الاساربر
أتيت اليكِ من قفراء ملء شعابها الاشباح . والبشر
أتيت اليك يسجد خلف خطوي البرق ، والشجر
أتيت اليك احمل عالمي الجني
آثار الجراح ، وساوس الغوباء
جهات الارض تنتظر القوافل – وهي تمضي –
والجوارح ، بانتظار البرق تستلقي ،
ووحدي العائد الوحشي منها فاسمعي صوتي
لقد صارعت آلاف « السعالي »
كانت الغيلان ترجمني،
وتملأ ليلي المجهد
بآلاف الثعابين الخرافية
تخاطبني الحجارة ان اعود
تخيفني الاعشاب
اسجن خلف قضبان الأظافر،
ترعد الكثبان من حولي
يعد الذئب في عيني ليل عوائه الاسود
وحين الرعب يلقي سره الليلي .. تخطفني «التميمة » ..
من براثنه ،
فامضي حاملا نعشي ، واحلامي الصباحية
وفي كفي « تميمة » أمي الجزلى

قوياً كنت كالأشجار ، إعصارا ،
عبرت ذرى الجبالِ ،
مضائق الصوانِ والغابات
وقفت على بحار النور والظلمات
وقفت احارب الاموات ، والاحياء لم ار كع ولم أبكِ
وحين لمحت كفَّ أخي تمُدّ إلي في الغلس ..

. . . . .

نزعت السهم من ظهري ،
رميت ثيابه للريح ،
أبرص كان دون « تميمة »
والحقد يرشح من خلاياهُ
ولحظتها ..
بكيت .. ركعت ،
دب الموت في نفسي
تركت دمي على وجه الطريق ،
وفوق مزارع الشوك
رجعتُ اليكِ أحمل كل ما في الوشم والندبات
من قصص بدائية
رجعت إليكِ لا ارجو سوى دفن الندوب ،
سوى بقاء « تميمتي » الشكلى
فصبّي في كؤوس الليل ما يُسكر الليله

ساشرب ،
سوف أروي في المساء جميع ما أنبتتُ عن زبدٍ ..
الموانئ حين يدفع للذرى سيله
وأبكي حين اشرب ملء اعراقي ،
وفي الحانات حولي سوف يجتمعون ،
في غبش الأزقة ..
يسألون الناس عن ظلي ،
وأرجع منهك الاطراف ، والاعماق ، استهديك ،
ابكي قبل ان القاكِ ،
ادخل فاو ساً ثلا ،
وتستمعين ..
شيء لم يكن بالبال ،!!
تستمعين ضاحكة وانت حزينة مثلي
وأروي ..
ما الذي .. أروي ؟!!.

ريفيـــة

معلى الصارم

كن كيف شئت ولا تسل عمّا بي
أنا من فتنتُ بخمرةِ الأكواب
وازهَدْ فلي كبدٌ يفطّرُها النوى
لمفـاتنٍ وكواعبٍ أتراب
فلقد أنستُ من الغرامِ بجرّةٍ
وقد استطبتُ من الحسانِ عذابي
وبهيكلِ الذكرى أرى لي معبداً
أمشي بآثامي الى محرابي
نعمى الزمانِ حياةُ حبٍّ عندها
عانقتُ آمـالي وعفتُ ثوابي
تجلو عليَّ الحبَّ في كلماتهـا
هيفاءُ ذات ملاحةٍ وتصابي

تخذت من العَنَم النديّ خضابَهَا

لتقضّ فيه مضاجعَ الأحبابِ

ومشت تجدّد ما طويتُ فنونه

وقضيت فيـــه غوايتي وشبابي

حرّى يرنّحها اشتياقٌ صامتٌ

في نفسِها لخلاعة ودعـــابِ

وبردُها عنـــهُ الحياءُ وعفّة

وكرامة الأحسابِ والأنسابِ

عرضت عليّ الحبّ وهو ضلالةٌ

طلّقتُهَا ، ودخلت باب متابي

ونسيتُ في الوادي وقد بسمت لنا

شمسُ الأصيلِ وآذنت بغيابِ

لقيا ألذّ المـــدامِ يـديرُها

عـــذبُ المقبّل ناعمُ الجلبابِ

وعكفتُ في حرمِ المشيبِ وإنهُ

عجزُ الفتى عن زحمةٍ وغلابِ

عَبرت على فلكِ الفؤاد وهدهدت

أطيـاف آمالٍ على أهـــدابي

فألحّ بي شوقٌ ، وكنت طويتُهُ

ورجعتُ عنه الى هُدًى وصوابِ

لأفتُونَ في ثغرٍ كأنَّ رحيقهُ

خمرٌ مسلسلةٌ منَ الأعنابِ

هاتي مُنَاي : ففي الفؤاد بقيَّةٌ

للحبِّ أحييها بكأسِ شرابِ

وتموَّجي ألقاً يثير خواطري

ويزيد فيَّ لذائذي ورغابي

خضَّلت فَجْرَ صباي من عطرِ الهوى

ولأخضبنَّ مشيبَهُ بملابِ

فدمي .. أحسُّ دمي لهيباً فائراً

يهفو الى متعٍ لديكِ عذابِ

الرد الاشتراكي على التحدي الأميركي [1]

عرض : ميشيل كيلو

« لم يمارس في يوم من الأيام بلد من البلدان تفوقاً شاملا شبيهـاً بتفوق الولايات المتحدة في نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولم تفقد دولة تفوقها بالسرعة التي فقدت بها الولايات المتحدة تصدرها المطلق ، فالقرن الاميركي لم يـدم عشر سنوات » [2] .

بهذا التأكيد يبدأ مانديل كتابه الهام عما يسميه « بالتحدي الأميركي » للشعوب الأوروبية . وهو يبرز عوامل ثلاثة أدت الى انحسار « القرن » الاميركي هذا خلال عشر سنوات :

(١) الرد الاشتراكي على التحدي الأميركي . تأليف : ارنست ماندل . ترجمة : د. نعيم الخوري . دار دمشق – ١٩٧٠.

(٢) الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي . ص : ٣

آ — انسحاب روسيا من المعسكر الامبريالي، والتوسع الصناعي السريع للاتحاد السوفياتي بعد الحرب الكونية الثانية .

ب — ثورات المستعمرات السابقة التي أفادت الامبريالية الاميركية منها في البدء ، ولكنها لم تلبث أن تحولت ضدها بالذات كما حدث في الصين وكوبا .

حـ — اضطرار الامبريالية الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية لاصلاح وتقوية اقتصاد أوروبا الغربية واليابان ، خشية ان تترك هذه البلدان المعسكر الرأسمالي .

فهل تعني هذه العوامل الثلاث التي أنهت قرناً كاملاً في مدى عشر سنوات ان الولايات المتحدة لم تعد تهيمن على معسكر الرأسمالية العالميـــة ؟ . ذلك ما لايدعيه المؤلف بأي حال . بالعكس إنه يذهب الى تتبع المسيرة الاقتصادية الهيمنة الاميركية ، كما يجهد لرصد حركة الرأسمالية الأوروبية المعاصرة التي تضع الان ، ومن خلال السوق الأوروبية المشتركة ، أسس جديدة لمنافسة الرأسمالية الاميركية على السوق الدولية . فهل ثمة من أساس موضوعي لمثل هذا الصراع بين العملاقين الرأسماليين ، أميركا واوروبا، ورؤوس الأموال الأميركية المستثمرة في أوروبا تزداد بسرعة خارقة ؟

يلاحظ المؤلف من حيث المبدأ أن أوروبا الغربية شهدت بعد الحرب العالمية الثانية نهوضاً صناعياً سريعاً يعود الى الحاجة الماسة لتجاوز التأخر في انتاج السلع الاستهلاكية الدائمة ، والى صناعة تسلح بدأت بالسير ، وان كان بطيئاً ، وتصنيع سريع للمناطق المتخلفة على هامش المركز الصناعي لأوروبا الغربية»(1)،

(١) الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي . ص : ١٦

ويشدد المؤلف على أن هذه العوامل قد أدت الى توسيع السوق الداخلية، والزيادة مضطردة في تصدير المنتجات الصناعية من جهة، ومزاحمة دولية متزايدة القسوة أدت الى تجمع رأس المال وتمركزه الضخم من جهة ثانية .

هذه المنافسة الدولية هي التي قادت الى تمركز دولي لرؤوس الأموال ، وهو ما مكن التروستات الكبرى من أن تتصرف بفائض من رؤوس الأموال التي لا تستطيع توظيفها في بلادها ، دون أن تهـــدم بنية السوق الاحتكارية . وعندئذ اندفعت نحو الاتساع الدولي لاسباب ثلاثة .

ا - التغلب على منافس وطني بتوسيع مدى عملياتها ، واستيلائها بهذه الصورة ، وعلى الصعيد الوطني ، على قوة تسمح لها بتغيير علاقات القوى المنافية لصلحتها على الصعيد العالمي ، ومن ذلك دمج شركة ماشين بول الفرنسية ، وشركة أوليفتي الايطالية مع شركة جنرال الكتريك الاميركية ضد شركة I . B . M الاميركية ايضاً .

ب - الوصول على الصعيد الدولي الى مستوى يستحيل إدراكه على الصعيد الوطني ، من أجل منافسة تروستات الدول الأخرى بصورة أكثر فعالية .

ح - منع منافس أجنبي من متابعة المزاحمة التي تزعزع البنية الاحتكارية للسوق الدولية ، او تعزيز القوة الخاصة في مواجهة منافسين آخرين .

هل يعني ذلك أن حركة الرساميل الدولية كانت متساوية في جميع البلدان الرأسمالية ؟ . على هذا السؤال يجيبنا الكاتب بعرض واسع للتطورات الاقتصادية التي شهدتها الرأسمالية المعاصرة ، رأسمالية ما بعد الحرب . وهو يميز بين سياقين لهذه التطورات .

ا ـ السياق الأول يمتد من الحرب العالمية الثانية وحتى تأسيس السوق المشتركة ، وهي مرحلة تمتاز بالهيمنة المطلقة للرأسمال الأميركي الذي يملك قدرة انتاجية أعلى من قدرة الرأسمال الأوروبي ، وبتكاليف أدنى رغم ارتفاع الأجور في الولايات المتحدة ، والذي يملك تقدماً تقنياً كبيراً ، وأسبقية في تمركز رؤوس الأموال . وتدل الأرقام التالية على ضخامة حجم التروستات الاميركية بالقياس الى اكثر بلدان اوروبا الغربية تطوراً ، فرقم الأعمال لعشرين شركة اميركية هو بصورة واقعية مساو للانتاج الوطني لجمهورية المانيا الاتحادية ، ورقم الاعمال لأكبر خمسة مشاريع اميركية يساوي تقريباً الانتاج الوطني لايطاليا »(1) .

و « يساوي رقم اعمال شركة جنرال موتورز مجموع ارقام أعمال اكبر ثلاث عشرة شركة المانية »(1) . ويتعزز هـذا التفوق الاميركي باضطراد لأسباب عديدة :

١ ـ صناعة التسلح الأميركية .

٢ ـ التقدم التقني الذي يتطلب توظيف رؤوس أموال هائلة كما حدث حين وظف تروست I . B . M مبلغ خمسة مليارات دولار لانتاج سلسلة جديدة من الحاسبات الالكترونية ، مع أن هذه العملية برمتها كانت مخاطرة . فأي تروست أوروبي يستطيع توظيف ولو قسم من هذا المبلغ في مخاطرات غير مضمونة العواقب ؟ .

٣ ـ التوظيفات الاميركية الكبيرة في اوروبا الغربية ، وهي تقـدر بـ ٢٥ مليـار دولار جاء معظمها من أرباح الشركات الاميركية العاملة في أوروبا نفسها .

(١) ارنست ماندل : الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي ص ٣٠ .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

٤ ـ امتلاك الولايات المتحدة للرأسمال الثقافي للبلدان الاخرى ، وخاصة الأوروبية ، وهو ما يعرف بهجرة الأدمغة التي توفر على الولايات المتحـــدة استثمارات مالية هائلة .

٥) مساهمة الدولة الاميركية في نفقات البحث والتنمية ، وهي تبلغ ٦٤ ٪ مقابل ٤٠٪ في المانيا الغربية و ٣٧٪ في بلجيكا ، و ٣٠٪ في هولندا .

ب ـ السياق الثاني وهو يبدأ مع تأسيس السوق الاوروبية المشتركة التي تستهدف أمرين اثنين :

١ ـ تخليص رأس المال الأوروبي من خطر الاختناق الذي كان يتعرض له داخل إطاره الاقليمي الضيق ، وهو ما كان يبدو بشكل خاص في المانيا .

٢ ـ توسيع السوق الأوروبية وتوحيدها بحيث تسهم بصورة أكبر في مركزة وتجميع رؤوس الأموال .

ومع ان السوق المشتركة لاتزال تعاني من المشاكل المترتبة على وجود وترسخ الدولة القومية ، وهو مايعبر عن نفسه في الصعوبات التشريعية التي تواجه دمج الشركات الاوروبية اوتأسيسها، ولاتزال تعاني ومن ضعف نمورأس المال وتمركزه، فقد قامت حتى الآن بخطوات هامة لتثبيت مواقف رأس المال الاوروبي في وجه منافسه الاميركي ، الامر الذي يبدو في سلسلة الاندماجات فوق القومية التي حدثت في بلدان وفروع صناعية عديدة .

واذا كان هناك في واقع الحال مايعبر بصورةواضحة عن اهداف ومصالح رأس المال الاوروبي الكبير الواقف وراء السوق ، فإنمـــا هو الايديولوجية الديغولية التي تقدم بعدائها لهيمنة الولايات المتحـدة على اوروبا ارضية مشتركة

لمختلف اطراف الرأسمالية الاوروبية التي تنهكها المنافسة مــع رؤوس الاموال القادمة عبر المحيط ، والتي تعبر من جهة اخرى عن خوف رأس المال الاوروبي الكبير من مخاطر الدمج ، فتتمسك بدولها القومية في وجه مؤسسات السوق فوق القومية . غير ان ازمة الديغولية هي في الحقيقة ازمة السوق المشتركة ايضاً ، فلكي تصمد هذه في وجه الاحتكارات الاميركية العملاقة ، لابد لها من العمل على تأسيس وحدات اقتصادية فوق قومية ، ولكي تؤسس هذه الوحدات لابد لها من انشاء مؤسسات ادارية وسياسية فوق قومية ايضاً ، غير ان الديغولية ، ومن ورائها ايديولوجية السوق بكاملها ، تقوم على الارضية القومية للاقتصاد الرأسمالي، وهو مايعبر عن نفسه في مواقف رأس المال الاوروبي المتناقضة ، فهو يعمل على دمج مؤسسات اوروبية عديدة في وجه المنافسة الاميركية ، لكنه لايلبث ان يرتد حتى الى اجراءات الحماية بمفهومها التقليدي على بعض الاصعدة ، كما فعلت الحكومة الفرنسية حيال صناعة البرادات الايطالية ، حين اخذت هــذه تهدد الصناعة الفرنسية ، فوضعت عراقيل عديدة في وجه دخولها السوق الفرنسية ، مع أن ذلك يتنافى مع اتفاقيات السوق المشتركة نفسها .

هذا الوضع فرض على السوق المشتركة حلا من اثنين :

١ ـ اما ان يتغلب الاتجاه نحو تداخل رؤوس الاموال الاوروبية فيعطي فرصة سانحة لمنافسة الولايات المتحدة بنجاح ، أو

٢ ـ أن يتفكك اتحاد الدول الاوروبية الست الى قوميات اقتصادية ضيقة تفسح المجال لسيطرة الولايات المتحدة الحتمية على الحقل الرأسمالي بكامله [١] .

(١) نفس المصدر : ٦٩ .

ويبدو ان التروستات الاوروبية فضلت الطريق الاول فشرعت تمارس الضغط لايقاف ركود الاندماج الاقتصادي ، واخذت زمام المبادهة للاشتراك بتأسيس شركات اوروبية .

هذا على الصعيد الاوروبي ـ الاميركي . فكيف عبرت هذه الوقائع عن نفسها على الصعيد العالمي ؟ .

اشتدت المنافسة بين رأس مال اوروبا واميركا مع ازدياد تمركز كليهما، وبرز ذلك بروزاً شديداً في علاقاتها البلدان النامية ، ومـــع بلدان المعسكر الاشتراكي ، حيث لازال رأس المال الاوروبي يتمتع بتفوق واضح على منافسه الاميركي . فقد ارتفعت صادرات اوروبا الغربية الى اوروبا الشرقية من ٦٢٤ مليون الى ١٫٢ مليار دولار الى ٣٫٢ مليار حتى عام ١٩٦٧ ، بينما لم تتجاوز صادرات الولايات المتحدة اليها مبلغ ١٩٨ مليون (١) . وفي حين وظفت الولايات المتحدة مليارات الدولارات في الاقتصاد الاوروبي ، وبخاصة في صناعة الثورة التقنة ـ العلمية كالحاسبات الالكترونية والصناعات الكيماوية ، قامت اوروبا ايضاً بهجوم معاكس على السوق الاميركية ، فاستولت عـام ١٩٦٨ على ٢٠٪ من الطلب الاميركي الداخلي على المصنوعات الحديدية ، وصدرت مليون سيارة الى اميركا ، وباعت اكثر من ٥٠٪ من آلات الحياكة والآلات الكاتبة المباعـــة في السوق الاميركية (٢) . وامتدت المحاولات الاوروبية ضد رأس المال الاميركي الى سوق النقد ، فطرحت فرنسا فكرة التعامل بالذهب ، بحيث لايستند النظام النقـدي الدولي على معيار التبادل الذهبي الذي يمكن اميركا من شراء المشاريع الاجنبية

(١) نفس المصدر : ص ٩٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٠٠ .

بفضل القوة الشرائية الفائضة التي اوجدتها هي نفسها داخل بلادها . ويعتقد الفرنسيون ان الاحتياطي الذهبي لاوروبا الذي ارتفع في عام ١٩٦٨ الى ٢٣و٥ مليار دولار ، مقابل ١٤و٦ مليار تملكها الولايات المتحدة ، سيمكن اوروبا في حالة التعامل بالذهب من دفع رؤوس الاموال الاميركية خارج القارة ، أو إضعاف سطوتها فيها على الاقل .

ان جميع هذه الظواهر الاقتصادية ، وما يترتب عليها من نتائج سياسية ، قد ادت منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن الى اجراء تحولات هامة على جميع الاصعدة في القسم الغربي من القارة الاوروبية بكاملها . وقد اقتصر حديثنا الى الآن على نشاطات رأس المال والدولة البرجوازية في اوروبا واميركا ، فما هو موقف الطبقة العاملة الاوروبية من هذه التطورات ؟ .

يلاحظ مانديل أن ثمة اتجاهاً داخل حركة الطبقة العاملة الأوروبية إلى التمسك بفكرة الدولة القومية ، بعد أن حول رأس المال بطابعه فوق التقدمية هذه الدولة إلى مؤسسة لم تعد تتناسب مع متطلبات العصر الاقتصادية ، أو بمعنى آخر : ان العمال يتحولون إلى فكرة الدولة القومية في وقت يخلق فيها رأس المال جميع الشروط لنشاط عمالي أممي ، فما الذي قاد ويقود الطبقة العاملة إلى هذا المنزلق ؟ . إنه انقسام الحركة العمالية وتعدد تياراتها ، وانخفاض الوعي السياسي لدى قادتها ، بسبب اندماجهم في « المجتمع الاستهلاكي » ومشاركتهم في نشاطات رأس المال التي تستهدف الربح . كما يعود السبب إلى الاستعداد الأكبر للتنظيم لدى رأس المال الاحتكاري ، وقد مارست اتحادات أرباب العمل بالفعل نفوذاً كبيراً على المؤسسات الأوروبية فوق القومية ، بينما لم تلعب الطبقة العاملة الأوروبية دوراً يذكر لا في تأسيس السوق ، ولا في إيقاف نفوذ

الرأسماليين عند حد ، وهو ما مكّن هؤلاء من أن يقلبوا موازين القوى لصالحهم بصورة واضحة . حيال هذا العجز تحولت الأحزاب الديموقراطيـة ـ الاجتماعية عن الاشتراكيـــة الى الاصلاحية ، وتحولت الأحزاب الشيوعية إلى أحزاب ديموقراطية اجتماعية ، حسب ما يقول الكاتب ، على الرغم من أن قانون التنمية اللامتساوية لا زال يتحكم في تطور علاقات القوى الاجتماعية والسياسية في مختلف بلدان الجماعة الأوروبية ، الأمر الذي يطرح على القوى العمالية مهمات متفاوتة .

إن الموضوع الرئيسي الذي يطرح نفسه الآن على العمال ، وفي ظل التداخل الدولي لرؤوس الأموال الذي سيؤدي الى اندماج اقتصادي في السوق المشتركة ، وبالتالي الى بروز مؤسسات فوق قومية تتمتع بسلطات دولة حقيقية جديدة ، هو ازدياد العقبـــات الموضوعية أمام استيلاء العمال على السلطة داخل الاطار القومي، لذا يصبح من واجب الطبقة العاملة في المرحلة الحالية أن تكيف عملها النقابي والسياسي مع الاطار الاوروبي بكامله ، وان تستخلص النتائج التي تنجم عنه بالنسبة لنظامها »[1] ؛ هذا لا يعني بالطبع إيقاف حركة تداخل رؤوس الأموال الدولية ، لمجرد انها تضيق تدريجياً امكانات الاستيلاء على السلطة ضمن الاطار القومي . إن من باب الوهم القيام بنشاط يستهدف منع التحولات التي تتوافق مع تطور القوى المنتجة ، لأن « هدف الطبقة العاملة ليس في النهاية الابقاء بصورة مصطنعة على المشروع الرأسمالي الصغير وإيقاف تجمع رأس المال »[2] . كما لا يتضمن الدور التاريخي للحركة العماليـــة « التعلق بالمصالح الخاصة بهذه الفئة أو تلك من البرجوازية ، سواء أكانت الفئة التي تدافع عن التجمع الدولي لرؤوس الأموال أو تلك التي تبقى متمسكة بالدولة القومية »[3] . والموقف العمالي لا يجب أن يبر

(١) نفس المصدر : ص ١٤٣ .

(٣،٢) نفس المصدر : ص ١٤٤ .

عبر الأحاديث النظرية ضد القومية ؛ بل هو يمر «عبر الحركة والتجربة الواقعية» أي بأعمال تجري ضمن الاطار الأوروبي »[1] .

ما هي الاخطار التي تتهدد نشاط العمال في المرحلة الراهنة من تطور أوروبا الرأسمالية ؟ .

إنها انحيازهم بصورة من الصور إما لرأس المال الأوروبي أو لرأس المال الاميركي ، وتخليهم عن مواقفهم الخاصة التي يجب أن تستهدف تحويل المجتمع الأوروبي الرأسمالي تحويلاً اشتراكياً ثورياً . وهناك مغريات كثيرة ، وضغوط عديدة لدفع العمال نحو تبني مصالح الرأسمالية الأوروبية الغربية في صراعها مع الولايات المتحدة . وعلى رأس من يمارسون هذه الضغوط منظرو الرأسمالية الاذكياء كالسيد جان جاك سيرفان شرايبر الذي يقول للعمال ما يلي : إن تجمع وتمركز رؤوس الأموال الدولية هما أمر لا مفر منه ، ولكنهما يمكن أن يتخذا شكلاً من اثنين :

١) إما أن يبتلع رأس المال الأميركي أوروبا ، فيفقد الأوروبيون ، والعمال من ضمنهم ، كل رقابة على وسائل الانتاج ، وتشل الوسائل التي يستخدمونها كالاضرابات والمظاهرات والانتخابات ... الخ ، أو

٢) أن تثبت الشركات الأوروبية مواقعها وتؤسس رؤوس أموال أوروبا شركات ذات أبعاد كبيرة . وفي هذه الحالة سيتمكن العمال من ممارسة نفوذ معين على مقدرات قارتهم على الأقل .

ان هذه الطريقة من التفكير شكلية صورية ، تحاول إضفاء طابع

(١) نفس المصدر : ص ١٤٤ .

وطني قومي على رأس المال الكبير الذي لا يتم إلا لأرباحه ، وهي تستهدف ربط العمال أمام عربـــة البرجوازية الأوروبيـة لافقادهم موقفهم السياسي الخاص ، وبالتالي وعيهم لذاتهم كطبقة . ويكمن حل هذه المشكلة في نضال العمال من أجل قضايا محسوسة كالرقابة العمالية ، والديموقراطية ، وإعادة توزيـع الثروات ، ووضع برامج للنضال تأخذ باعتبارها الواقع بشموليته، دون أن تغرق في بحر التنظير المجرد .

* * *

يلاحظ على كتاب مانديل ، الرد الاشتراكي على التحدي الأميركي ، انه يقصر جدلية الصراع بين طرفي الرأسمالية العالمية المعاصرة على أوروبا وأميركا ، وأنـه لا يدخل في اعتباره تنـــامي القوة الاقتصادية للمعسكر الاشتراكي وانعكاساتها على هذا الصراع ، كما أنه لا يأخذ بعين الاعتبار حركة التحرر الوطني التي ، وبفضـــل وجود المعسكر الاشتراكي ، ستلعب دوراً هاماً ورئيسياً في تحديد نوعية « الرد الاشتراكي الأوروبي » . ولكن كتابه هو على كل حال وثيقة هامة بالنسبة لنـا نحن الشعوب التي تخوض غمار المعركة ضد الرأسمالية العالمية ، لأنه يقدم لنا تقريراً تفصيلياً عن أوضاعها الراهنة واحتمالات تطورها،مع تشخيص لنقاط القوة والضعف فيها .

الطاقة الشمسية (*)

عرض وتقديم : هشام الدجاني

كلنا يعرف أن الطاقة الشمسية هي مصدر الحياة على الأرض . ولكن ماهي هذه الطاقة؟ ماهي استطاعتها ؟ و كيف يمكن الافادة منها كما نفيد من الطاقة الحرارية والطاقة الكهربائية ؟

هذه هي الأسئلة التي بدأ العلم بالبحث عن أجوبتها منذ القرن التاسع عشر .

يبدو للعلماء اليوم أن بإمكان الطاقة الشمسية أن تؤدي معظم الخدمات التي تؤديها الطاقة الكهربائية مثلاً أو غيرها من الطاقات .

فما الذي تحقق علمياً من هذه الانجازات؟ إن الاشعاعات الشمسية وظائف كثيرة فهل يمكن تجميعها بحيث تعطي مردوداً أكمل وأكثر اتقاناً ؟

(*) منشورات وزارة الثقافة . دمشق - ١٩٧٠ ؛ اقتباس د . مارسيل داغر ، تقديم د . أدهم السمان .

في هذا الكتاب العلمي المبسط نجد الجواب عن هذه الاسئلة وغيرها من الأسئلة الهامة التي تراودنا عن الطاقة الشمسية .

الدكتور مارسيل داغر اختار مادة هذا الكتاب القيم من ثلاثة كتب علمية صادرة بالفرنسية في فترات مختلفة . وأول هذه الكتب كتاب بول كولودكين « انتصار الطاقة الشمسية » [١] ، وثانيها كتاب هنري جارلان « الشمس واشعاعها »[٢]. وأخيراً كتاب لويس لوبرنس «الاكتشافات العظيمة للقرن العشرين » [٣] .

وقدم لهذا الكتاب الدكتور أدهم السمان في كلمة تحدث فيها عن معنى الطاقة ومبدأ تحولها من شكل الى آخر . وهو يقتصر بالتعريف هنا بالطبع على الطاقة الاشعاعية لأنها تمثل الشكل الوحيد الذي يصل الى الأرض من الشمس ، والتي تتحول على سطح الارض الى الشكلين المعروفين : الشكل الكيميائي والشكل الحراري . واذا عرفنا أن كل سم² واحد من سطح الأرض يستقبل من الشمس طاقة قدرها ٨٫٥ جول تقريباً في الدقيقة الواحدة أدركنا مدى الطاقة الشمسية الهائلة التي يمكن أن يستفيد منها الانسان لتحقيق مزيد من الرفاهية والحضارة .

تتناول الفصول الأولى من هذا الكتاب الوظائف الفيزيائية والبيولوجية المتعددة للاشعاعات الشمسية وتأثيرات هذه الاشعاعات الشمسية المختلفة . ثم

---

(١) Paul Kolodcin : (Le Conquête de Soleir) Paris , 1960

(٢) Henri Jarlan (Le soleil et son Raynnement) , P. U. F. , Paris

(٣) Louis Le - Prince - Rigvet ; Déstuvertes du XX ieme Siecle » - Larousse paris

ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن الاستفادات العملية من الطاقة الشمسية وما تم صنعه فعلاً من أجهزة للاستفادة من هذا الطاقة وتحويلها الى أشكال أخرى للطاقة .

ويخلص المؤلف من هذا البحث العلمي الممتع والمفيد الى أن استخدام هذه الثروة الطبيعية الكامنة الهائلة ليس بالعملية السهلة ، بل يحتاج الى دراسة علمية متشعبة وأجهزة فنية فائقة الدقة . على أن الاستفادة من هذه الطاقة في عصرنا لم تعد مجرد فكرة بل أصبحت علماً قائماً بذاته ، علماً جديداً يتطور بسرعة مذهلة .

ويرى المؤلف أن المستقبل القريب يحمل في طياته امكانات واعدة في مجال استخدام هذه الطاقة الغزيرة التي لا تنضب استخداماً رخيص التكاليف غني المردود سهل الاستعمال .

● تعكف « مؤسسة الدراسات الفلسطينية » على اعداد بيبليوغرافيا شاملة مع التعريف بالمراجع المتعلقة بالقضية الفلسطينية في مختلف جوانبها السياسية والتاريخية والجغرافية والأدبية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية .. باللغات العربية والانكليزية والفرنسية والألمانية والعبرية والروسية . وتشمل البيبليوغرافيا الكتب والمقالات والمخطوطات . وترجو المؤسسة المؤلفين والكتاب ودور النشر تزويدها بالمؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع، أو لفت نظرها عن طريق المراسلة الى مؤلفاتهم او مقالاتهم وتحديد كيفية الاطلاع عليها .

● شهد يوم ٢١ آذار ١٩٧١ لقاءاً ودياً ثقافياً بين بعض أعضاء المكتب التنفيذي المؤقت في اتحاد الكتاب العرب في القطر السوري ووفد اتحاد الكتاب اللبنانيين الذي ضم الدكتور سهيل ادريس ومنير بعلبكي واحمد ابو سعد وفؤاد الخشن وميشال سليمان ، وحسين مروه ، ومحمد دكروب .

ومن بين أهم الأمور التي اتفق عليها الوفدان في لقائهما :

- عقد ندوات ولقاءات دورية بين كتاب وأدباء القطرين الشقيقين تعقد في دمشق وبيروت ، ويكون طابعها ثقافياً قومياً .

- طرح موضوع تعريب التعليم في البلدان العربية موضوعاً أساسياً للمناقشة في هذه الندوات .





يجري سحب الاصدار العادي الرابع بتاريخ ٦ نيسان ١٩٧١